جمعية الإمام الصادق عليه السلام
لإحياء التراث العلمائي

السيد محمد رضا فضل الله

الحكيم والمصلح

تقديم وإعداد:
الشيخ حسن البغدادي العاملي

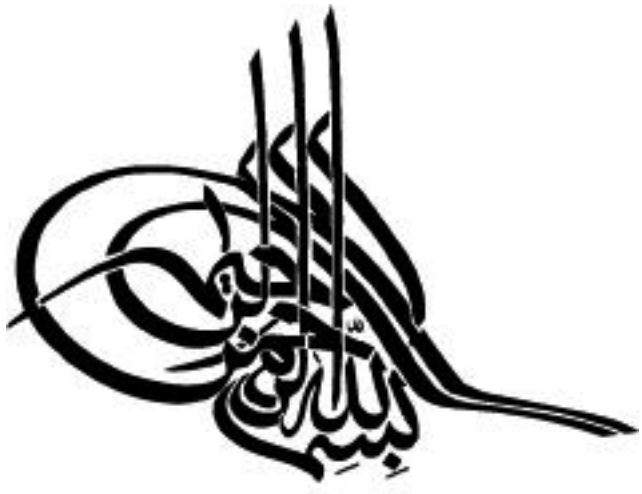

الـــكـــتـــاب:	السيد محمد رضا فضل الله - الحكيم والمصلح
إصـــــــدار:	جمعية الإمام الصادق عليه السلام لإحياء التراث العلمائي
تـاريـخ الإصـــدار:	٢٠١٧م - ١٤٣٨ هـ

المقدمة

عندما نوثّق لشخصية علمية وإصلاحية، كالعلامة الحجة السيد محمد رضا فضل الله الحسني (طاب ثراه)، إنّما نوثّق لمرحلة كانت غايةً في الأهمية، وأحوج ما تكون إلى عالم، قد اجتمعت فيه مواصفات إستثنائية؛ من الذكاء وصفاء النفس وطهارة القلب، وقادر على الإمساك بزمام العلوم على اختلاف مشاربها، وبلوغ الكمالات في أعلى مراتبها.

تلك المرحلة كانت مليئة بالأحداث، ولم تزلْ تعيش تداعيات النكبة الكبرى التي مرّت على جبل عامل، عندما حرق العثمانيون الأخضر واليابس سنة ١٧٨١م /١١٩٥هـ، وشرّدوا العلماء والناس، وأحرقوا الكتب والمخطوطات، وقتلوا بعض العلماء، ونكلوا بالآخرين. فاعتدوا على كرامة المجتمع العاملي، ولم يسلم من شرهم أحد، حتّى الذي كان يُحكم بالإعدام، كان يموت تحت التعذيب، ولم تنجلِ هذه (الغبرة) إلا بهلاك الوالي العثماني (أحمد باشا الجزار) سنة ١٨٠٤م الموافق لسنة ١٢١٩هـ، وجد العثمانيون أنفسهم مضطرين لتغيير سياستهم، بعدما قَضّتْ مضاجعهم حركة (الطياح)[1]،

(١) الطياح أو حركة الطياح: حركة مقاومة تأسّست بعد نكبة جبل عامل على يد الوالي العثماني أحمد باشا الجزار واستشهاد الأمير في جبل عامل ناصيف النصار، حيث عمد العثمانيون على التفكير الجدّي بوضع جبل عامل تحت الوصاية المباشرة، وكانت النكبة من سنة ١٧٨١م ـ ١٨٠٤م / ١١٩٥هـ ـ ١٢١٩هـ، وكان لهذه الحركة إيجابياتها وسلبياتها.

فتشكلت قناعة لديهم من عدم جدوى الإبقاء على هذا الوضع المزري لجبل عامل، الذي لم يَعدْ منتجاً على الصعيد الإقتصادي، وهو يتنافى مع الجشع العثماني وحبّهم للمال.

السيد محمد رضا من الذين ساهموا في إعادة الحضور العلمي، وإعادة الحياة الطبيعية إلى جبل عامل ـ كما سنبيّن ـ كما كان له دور واضح في المرحلة التي عاشتها المنطقة، عندما لاحت في الأفق إرهاصات الحرب العالمية الأولى، واستشعر العثمانيون معها الوهن، والناس في جبل عامل بدأوا يميلون نحو الإستقلال، وبدل من أن يعمدوا إلى التوسعة على الناس، وإشعارهم بمزيد من الحرية، عملوا على التشدّد وعقاب الناس، من خلال إطلاق يد السفاح (جمال باشا)[1]، مما استدعى اعتراضاً من السيد عبد الحسين شرف الدين، ومعه إخوانه العلماء، فأرسلوا كتاباً إلى السلطة العليا في اسطنبول، كما ذكر ـ رحمه الله ـ في كتابه بغية الراغبين[2].

استمرت الحرب العالمية الأولى أربع سنوات من سنة ١٩١٤م إلى سنة ١٩١٨م، وكانت مرحلة قاسية على الناس، وكان وجود علماء الدين، عاملاً أساسياً في رفع الأعباء عن كاهل الفقراء والمعدومين، ومضافاً لهذا التصدي في رفع الأعباء الإقتصادية، كان المجتمع العاملي بحاجة إلى من يُثبِّت عقيدته ويُذكّرهم بالآخرة، ويُولّد عندهم حالة الأمل، وهنا لعبت المدارس الدينية دوراً مركزياً، في نشر الوعي، كما عملت على توليد الطاقات الفكرية والأدبية، كعامل مساعد في الإستقرار، وإعطاء الأمل كي تبقى هذه المنطقة (جبل عامل) إحدى المراكز الأساسية التي يُعتمد عليها في إحياء هذا الدين ونشر شريعة سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا كان السيد محمد رضا فضل الله قد توفي أثناء الحرب العالمية الأولى، ولم

(١) السفاح جمال باشا: أحد أركان جمعية الإتحاد والترقي التي قامت بالإنقلاب العثماني على السلطان عبد الحميد، ولد سنة ١٨٧٢هـ، وقتل سنة ١٩٢٢م على يد أرمني في تفليس، ولقب بالسفاح لقيامه بأعمال العنف والقسوة على العرب، صار وزيراً للجيش الرابع العثماني في سوريا ولبنان عند نشوب الحرب العالمية الأولى، وقد عانى من ظلمه وتعسفه جميع أهالي بلاد الشام (لبنان وسوريا)، حيث قام بفرض نظام السخرة والتجنيد الإجباري، وقام أيضاً، بتعليق المشانق وإصدار الأحكام العرفية لجماعة من الوطنيين في ساحة الشهداء في بيروت وساحة المرجة في دمشق.

(٢) السيد عبد الحسين شرف الدين، بغية الراغبين، ج٢، ص١٤٢.

يشهد خُلّو المنطقة من العثمانيين، إلا أنه كان أحد الأعلام الذين ساهموا في مواجهة تداعيات هذه الحرب، وإرساء قواعد النهضة العلمية في جبل عامل، فعمل على نشر العلم والأدب والشعر، والإبقاء على جبل عامل حاضرة علمية وفكرية وأدبية وجهادية، كانت تُشكل ضمانة البقاء والمواجهة في العهد العثماني، كما تُشكل قوة جبل عامل، لمرحلة ما بعد العثمانيين، وهذا ما حدث بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث تمكن جبل عامل من الصمود والمواجهة لمرحلة الإنتداب الفرنسي. والسيد محمد رضا في تلك المرحلة، شكّل مع بقية العلماء ضمانة استمرار النهضة العلمية والأدبية التي أسّس لها عميقاً في جبل عامل العملاق الشيخ محمد بن مكي الجزيني المعروف بالشهيد الأول، والذي قتله المماليك في دمشق سنة ٧٨٦هـ، وأُحرقوا جسده الطاهر بعد القتل والصلب[١]، وكما نهض الشهيد الأول على المستوى العلمي، كذلك حمل لواء الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب من جاد بعده، لقطع الطريق على وعاظِ السلاطين، ولجمهم من العبث بالأمن والإستقرار القائم على الجهل والتعصب، في قبال الحصول على المال والمناصب، ولو كان ذلك على حساب دماء المسلمين وهتك أعراضهم.

وسار على نفس الخطى حاملاً مشروع الاستمرار بالنهضة العلمية، والتقريب بين المذاهب الإسلامية الشيخ زين الدين بن علي (الجباعي) والمعروف بالشهيد الثاني[٢]، والذي أصرّ على البقاء في جبل عامل رغم الخطر الذي أحدق به، حيثُ أدى إلى مقتله في عاصمة الدولة العثمانية أمام الوزير الأعظم في ٨ شعبان من سنة

(١) شمس الملة والدين أبو عبد الله الشيخ محمد بن الشيخ جمال الدين مكي إبن الشيخ شمس الدين محمد بن حامد بن أحمدالجزيني العاملي المعروف بالشهيد الأول، صاحب كتاب اللمعة الدمشقية، كان عالماً ماهراً فقيهاً محدثاً مدققاً ثقة متبحراً كاملاً جامعاً لفنون العقليات والنقليات زاهداً عابداً ورعاً شاعراً أديباً منشأ، فريد دهره، عديم النظير في زمانه، استشهد سنة ٧٨٦ هـ في اليوم التاسع من جمادى الأولى في دمشق في دولة بيدر وسلطنة برقوق بفتوى القاضي برهان الدين المالكي وعباد بن جماعة الشافعي بعد ما حبس سنة كاملة في قلعة الشام. (أعيان الشيعة، ج١٤، ص٣٧٠).

(٢) الشيخ زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد ابن محمد بن علي بن جمال الدين بن تقي بن صالح ابن مشرف العاملي الجبعي المعروف والشهير بالشهيد الثاني، قتله العثمانيون سنة ٩٦٥هـ في (اسطنبول) بعد اعتقاله من المسجد الحرام، ولد في ١٣ شوال سنة ٩١١هـ، وكان عالماً جليل القدر عظيم الشأن رفيع المنزلة تقياً نقياً ورعاً زاهداً عابداً حائزاً صفات الكمال وحسنة من حسنات الزمان، فقيهاً ماهراً في الدرجة العليا بين الفقهاء محدثاً أصولياً مشاركاً في جميع العلوم الإسلامية.

٩٦٥هـ، أو ما قام به علماء جبل عامل في العهد الصفوي في إيران، فعملوا على نشر الفقه والأصول والحديث والتفسير، كما شيّدوا المدارس والمساجد، وأرسوا مشروع الوكلاء، وتصدوا لمشيخة الإسلام، والقضاء والإفتاء، والإصلاحات العامة، وتثبيت العقيدة، وبهذا وضعوا حداً للحركة الصوفية، وهذا ما عبّر عنه الشهيد مطهري بقوله: « لولا ما قام به علماء جبل عامل في العهد الصفوي، من نشر الفقه والحديث والتفسير، وتشييد المدارس والمساجد، لكان آل أمرنا في إيران كما هو حال العلويين في سوريا».

السيد محمد رضا من علماء النهضة العلمية الثانية في جبل عامل، التي تشكلت بعد نهاية النكبة، حيث انطلقت فيها المدارس الدينية مجدداً في مختلف القرى العاملية، وكانت المدرسة الأولى في (كوثرية السياد) التي شيّدها الشيخ حسن القبيسي، بعدما عاد من النجف الأشرف سنة ١٢١٣هـ، حيث شجعه علماء النجف على ضرورة التوجه نحو جبل عامل لإعادة الحياة العلمية، وانضم إليها العديد من الطلاب، وأبرزهم العالمين الجليلين الشيخ عبد الله نعمة والسيد علي إبراهيم، حيث لم يكتفيا بما حازا عليه في جبل عامل، وإنّما ذهبا إلى النجف الأشرف للدرس والتحصيل، وبعد درسهما على الأساطين في النجف عادا إلى جبل عامل عالمين كبيرين، فشيّد الشيخ عبد الله مدرسة في (جباع)، والسيد علي إبراهيم، شيّد مدرسة في (النميرية)، وتخرّج عليهما طلاب كثيرون، كانت لهم مساهمات أساسية في إعادة الحياة العلمية: كالشيخ محمد علي عز الدين، والسيد يوسف شرف الدين، والشيخ مهدي شمس الدين، والشيخ موسى أمين شرارة وغيرهم، ممّن تخرّج على أيديهم جيل من العلماء، كالسيد محمد رضا فضل الله، والسيد محسن الأمين، والشيخ حسين مغنية وغيرهم، فقرأوا في (حناويه) و(بنت جبيل) و(طورا). إذاً، هذه النخبة من الجيل الثاني، التي ثبتت الحضور العلمي في عصر النهضة العلمية الثانية، الذي واكب تلك المرحلة، وبذلوا جهوداً كبيرة في نشر العلم والأدب، ومواجهة المخاطر التي مارسها العثمانيون، من التعصب والجشع والظلم، حيث تمسّك هؤلاء الأعلام بالمقابل، بالوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب، والوقوف إلى جنب المجتمع العاملي في معاناته.

ولم ينته هذا الحضور العثماني إلا بالحرب العامة التي استمرت أربع سنوات، والمؤلم بالموضوع أنّ المنطقة لم تذهب إلى الإستقلال كما وعد الحلفاء، وإنّما كان البديل الانتداب البريطاني على العراق وفلسطين، والانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان.

إذاً، المرحلة التي عاشها السيد محمد رضا، كانت شديدة الخطورة على مستقبل جبل عامل والمنطقة، لهذا كان المجتمع العاملي يحتاج إلى صمام أمان، يضمن له عقيدته، ويحفظ له لغته التي هي الطريق الموصل إلى الشريعة المقدسة، وإلى كتاب الله العزيز، مضافاً لتثبيتهم في الأرض، وحثّهم على التضحية في سبيل تحقيق تلك الأهداف، بما يُشكل بمجموعه المحافظة على الهوية.

ولا شك ولا ريب، أنّ السيد فضل الله كان أحد الأعمدة الأساسية في إطلاق ما سُمّي بالنهضة اللغوية والأدبية، وإن اشتهر في تلك المرحلة، الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، والشيخ عبد الله العلايلي، إلّا أنّ ما قدّمه علماء جبل عامل، في عصور مختلفة، وفي مختلف العلوم يفوق التصوّر والخيال، فما كتبه السيد محمد رضا من شعر وأدب ونثر، يحتاج القارئ معها إلى (قاموس لغوي)، كي يُدرك المعاني لتلك الألفاظ التي أطلقها السيد على تلك الأفكار، وخصوصاً أن السيد فضل الله جمع إلى اللغة والأدب، العلوم الأخرى من الفقه والأصول والفلسفة وعلم الكلام، في الوقت الذي لم تُتح الفرصة لبعض علماء النهضة من الحصول على هذه المكانة العلمية والحصول على هذه العلوم المختلفة، فالشيخ سليمان ظاهر والشيخ أحمد رضا، حازا على شيء من الفضيلة العلمية في الفقه والأصول عبر مدارس جبل عامل، وبالأخص المدرسة الدينية في النبطية التي شيّدها العلامة السيد حسن يوسف مكي[1].

(١) السيد حسن بن السيد يوسف بن السيد ابراهيم بن السيد علي الحسيني الحبوشي المعروف بالمكي، ولد في حبوش سنة ١٢٦٠ هـ، وتوفي في النبطية التحتا سنة ١٣٢٤ هـ، كان عالماً فاضلاً متقناً محمود السيرة غاية في حسن الخلق وسخاء النفس وعلو الهمة والسعي في قضاء حوائج المؤمنين والتواضع يخدم أضيافه بنفسه، قرأ المقدمات في جبل عامل في مدرسة الشيخ عبد الله نعمة في جباع، ثم هاجر إلى النجف وتتلمذ على الشيخ محمد حسين الكاظمي، والشيخ محمد طه نجف، والشيخ محمد كاظم الخراساني وغيرهم، عاد إلى جبل عامل وقام بتأسيس مدرسة دينية في النبطية، وبالإضافة إلى نشاطه التبليغي كان له دوره في الجهاد الوطني حيث عرف بجرأته في مقارعة المحتلين العثمانيين.

ولعلّ ميزة السيد محمد رضا أنّه كان عالماً مقتدراً وشاعراً محترفاً، وعندما عالج بعض الأمور، تراه عميقاً في أفكاره، ومتسلطاً على المفاهيم، وقد خرج من الروتين الموروث إلى معالجة الأفكار بعمق، وبما ينسجم مع مصلحة وتطلعات المجتمع، فعلى سبيل المثال: موضوع الإمامة، من خلال كتاب (الإمامة)[1]، نجده لم يقتصر في معالجة هذه القضية الكبرى المرتبطة بمصير الإسلام، وعقائد المسلمين بالروايات فقط التي وردت عن رسول الله ﷺ، وإنما مضافاً إليها عالج هذه القضية من ناحية فلسفية واجتماعية، وحاجة الناس إلى الإمامة، كي يُثبت ضرورة أن تفي هذه الحاجة بالغرض، فيكون هناك تناسب بين حاجة المسلمين، وبين اختيار الشخص المناسب.

ولعلّ كتاب (الإمامة ـ الأدلة العقلية والنقلية) للعلامة السيد محمد رضا فضل الله قدس سره، كان مخطوطة قام بتحقيقها مؤخراً السيد معروف محمد تقي فضل الله في إطار إحياء تراث العلامة قدس سره، وهو رسالة يحاول فيها سماحته إثبات الإمامة من وجوه مختلفة، والرسالة تقع في قسمين، مع ملاحظة عدم وجود ترتيب وتبويب للكتاب، وعدم وجود مقدمة تمهّد للموضوع على خلاف ما درج عليه سماحة السيد في بقية مؤلفاته. ولعلّ ذلك يؤشر على إمكانية ضياع جزء من هذه المخطوطة، ومما يقوّي هذه الفرضية هو عدم ذكر الأدلة من السنة النبوية على وجوب بعثة الأنبياء رغم الإشارة إليها، مقتصراً فقط على ذكر أدلة الكتاب الكريم.

يتميّز السيد في رسالته بالعمق وقوة الإستدلال ومتانة البيان، أضف إلى كونه كان أديباً وبليغاً حاله حال أكثر علماء جبل عامل.

لقد قام محقق هذا الكتاب بتقسيمه وجعله في بابين: الباب الأول تحت عنوان: «الأدلة العقلية والنقلية» وهو من سبعة فصول قصيرة.

في القسم الأول من الكتاب، يعمد سماحته في الفصول الستة الأولى إلى ذكر الآيات

(١) كتاب الإمامة للعلامة السيد محمد رضا فضل الله قدس سره المتوفى سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م. كان مخطوطة، قام بتحقيقها مؤخراً السيد معروف محمد تقي فضل الله في إطار إحياء تراث العلامة قدس سره.

القرآنية من دون شرح، كشاهدٍ على مبتغاه، مكتفياً بالشرح في الفصل السابع فقط.

في الفصل الأول يذكر أنّ العلة الداعية إلى بعث الأنبياء، وإرسال الرسل هي إزاحة علل الخلق، وقطع معاذير العباد ودحض حججهم إذا أراد أن يجازيهم بأعمالهم يوم الجزاء، أما الدليل العقلي فواضح بيّن لقبح العقاب من غير بيان، وأما النقلي فالآيات متكاثرة والسنة متضافرة. وقد اكتفى بذكر الآيات دون الأحاديث في هذا الفصل وبقيّة الفصول.

في الفصل الثاني يذكر أنّ الأدلة النقلية على ثبوت الإختيار من الله سبحانه على حججه على عباده وأمنائه في بلاده، وأنّ الإختيار لله لا للخلق والعباد لعدم معرفتهم وقصور عقولهم.

وفي الفصل الثالث يذكر الآيات الدالة على وجود الدليل وقيام الحجة.

أما في الفصل الرابع، فيذكر الآيات الدالة على وجوب اتباع الأئمة الدعاة إلى الله الأدلاء على مرضاته.

وفي الفصل الخامس يذكر الآيات التي تشير إلى من استحق الإمامة من ذرية إبراهيم عليه السلام.

وفي الفصل السادس يذكر الآيات الدالة على أنّ الإختيار منه، وأنّه في كل زمان لا بدّ من حجة لله في أرضه على عباده وخلقه.

أما في الفصل السابع، فيعمد إلى شرح الآيات الدالة على أنّ الخلق محتاج إلى من يقوم به صلاحه ويرتفع فساده ويبيّن به رشده ويمحي غيّه وضلاله.

يعرض سماحته مجموعة من الآيات القرآنية ذات الصلة بالموضوع، ويقوم بشرح كل آية على حدى بأسلوبٍ استدلالي علميّ على قاعدة (إن قلتَ قلتُ)، أسلوبٌ يتضمّن مفاهيم علميّة ذات أبعاد عميقة. يخلص في نهاية هذا الفصل إلى أنه يجب على الله أن يُنصّب قيّماً على كتابه، عالماً بكلّ ما تضمّنه، عارفاً بما حواه، خبيراً بعامّه وخاصّه وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومجمله ومبيّنه، ومطلقه ومقيّده، ونصّه

وظاهره، ومنطوقه ومفهومه، وجليّه ومؤوله، علماً هادياً وإماماً مرشداً ونوراً ساطعاً وضياءً لامعاً: يبيّن للعباد منه أحكامها، وحلالها وحرامها، وقصاصها ودياتها، وغير ذلك من الحدود التي حدّها، والغايات التي لزم العباد بالوقوف عندها.

كما يخلص إلى نتيجة مفادها أنه بما «أنّ النفوس مجبولة على حبّ الجاه والرياسة والتأمّر والرفعة والإستيلاء والغلبة من جهة القوة الغضبية، وحبّ الهوى واللذات والميل إلى الشهوات والطيبات، فلو فرضنا أنّ الله ترك عباده بعد نبيّهم هملاً، وأبقاهم بلا سائس يسوسهم، ولا إمام للصلاح يقودهم، إنتشر الفساد واختلّ نظام أمورهم، لأنّ كل واحد منهم يحبّ ويشتهي أن تكون الإمارة والسلطنة مقصورة عليه، كما هو المشاهد من الملوك والسلاطين، وهذا يؤدي إلى أمرين: إما أنّ اختلافهم يعفيهم من رئيس، وإما أن تكون الرئاسة بالغلبة والقهر، وفي كلا الأمرين من الفساد وخراب الكون وهلاك الحرث والنسل، ما لا يخفى على كل عقل.

فحينئذٍ إذا علم العقل أوجب على الله أن ينصب لهم بعد نبيّهم رئيساً مطلقاً ودليلاً متبعاً وإماماً هادياً، يكون تميّز عنهم في الصفات الكاملة، وفاقهم في المعارف الدينية والدنيوية...».

ويصل إلى النتيجة أنّ الإمام لا بدّ أن يكون أكمل الخلق في جميع الصفات، كما أنّ النبي ﷺ كذلك، لأنه بمنزلته، وقائم مقامه في حفظ الدين، ورعاية المسلمين لأنه إذا كان كذلك كانوا أقرب إلى طاعته، وأبعد عن معصيته... ويُكمل أنه لا بدّ أن يكون في الإمام أربع خصال، وبدون واحدة منها يبطل كونه إماماً، وهي: العصمة، أعلم الناس، أشجع الناس، وأسخى الناس.

أما القسم الثاني من الرسالة، وهو الباب الثاني من الكتاب ـ حسب تبويب المحقق ـ وقد جعله تحت عنوان: «الإمامة منصب إلهي»، يستهلّه رحمه الله بأبياتٍ مختارة من قصيدةٍ طويلة له في مدح الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، ثم يعمد إلى تقديم شرحٍ جميل فيه نكات علمية وفلسفية وأخلاقية وكلامية وقصص عقائدية، وبأسلوبٍ استدلالي عقليّ متين

يحاول من خلاله إثبات الإمامة من وجوهٍ مختلفة وزوايا متعددة، وأنّ كل ما في الكون يحتاج إلى مدير ومرشد.

فيبدأ شرحه بأنّ كل ذوي التكاليف من هذا العالم محتاجة إلى رئيس يقوّم زيفها، ويصلح اعوجاجها، وعليم عارف يبيّن ما أخطأه عقلها، ويوضح ما أخفاه جهلها، ويجب أن يكون موجوداً بين أظهرها، لئلا يكون على الله حجة لها، وتكون لها الحجة البالغة عليها... ثم يربط بين هذا الإستدلال وما يرمي الوصول إليه؛ بأنّ وجه الإحتجاج هو أنّا نقول: إنّ الجهة الداعية لإثبات صانع لهذه المحدثات هي بعينها داعية لإثبات مفزع إمام للأمة، ومرجع رئيس للخاصة والعامة، والجهة الداعية لإثبات الصانع كون هذا العالم ممكن، وكل ممكن مفتقر إلى غيره بالضرورة، وإلا لكان واجباً لا ممكناً والثاني بالضرورة عند الملة الإسلامية.

فافتقار هذا العالم إلى غيره، أثبت له صانعاً متقناً ومدبّراً حكيماً، كذلك نقول: إنّ افتقاره يثبت أنه لا بدّ من رئيس عام مَفزع للخاص والعام، يرشده إلى ما به نفعه وصلاحه، ويجنّبه عاقبة ضرّه وفساده، وإن كنا لم نشاهده ولم نره، كما أننا أثبتنا له صانعاً من جهة افتقاره إليه، وإن كنا لم نشاهده ولم نره، بل بافتقاره إليه حكمنا بوجوده، وإلا لكان الموجود للخلق غير حكيم.

بعد ذلك يعمد رحمه الله إلى تقسيم العالم المحسوس إلى أقسام ثلاثة (جماد، نام وحسّاس بقسميه الصامت والناطق)، ويشرع في ذكر وشرح حاجة هذه المحسوسات وافتقارها إلى غيرها من جهات معيّنة، ويبيّن أنّ الناطق من جملة ما يفتقر إليه المرشد إلى أن لا يكون هاتكاً لحرمة مبدعه، مرتكباً لما يضادّ إرادة موجده.

وهذا المرشد هو القيّم والرئيس الذي يدبّر أمر الأمّة، ويصلح فاسدها، والدليل على ذلك استقرائيّ، يعني أننا استقرأنا المدركات من الموجودات، فوجدنا أنّ لها رئيساً تصدر منه ومرجعاً تؤوب إليه قد جعلت فطرتها على الإنقياد إليه واتباعه.

ثم يذكر علة أخرى لوجود رئيس ومرشد، وهذه العلة مشتركة بين الحيوانات

الصامتة والناطقة، ووجه الإستدلال بها: أن الصانع لشيء والمبدع له، إذا كان حكيماً لا بدّ أن يكون متقناً لما صنعه محكماً لما أبدعه... والحكيم لا يكون حكيماً، ولا يوصف بالحكمة إلا الذي يحظر الفساد، ويأمر بالصلاح ويزج عن الظلم وينهى عن الفحشاء، ولا يكون ذلك إلا بمن تخشى سطوته وتهاب صولته، ويهاب بأسه وضرّه، ويرجى نفعه وخيره، وهو الرئيس المالك لأزمّة أمورها، والمذعنة لطاعته متمرّداتُ نفوسها...

بعد ذلك، يبسط الكلام بالجملة بمطلبٍ من المطالب الحكمية وهو رئاسة العقل على القوى الباطنة للنفس، فالعقل بمنزلة الرئيس المرشد والملك المدبّر، فمرجع مدركات هذه القوى إليه... ثم يستشهد باحتجاج هشام بن الحكم على عمرو بن عبيد حول أنّه كيف أن الله تعالى لم يترك الجوارح حتى جعل لها إماماً وهو القلب، فهل يمكن أن يترك الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم، فلا يقيم لهم إماماً يردّون إليه حيرتهم وشكّهم واختلافهم؟!

أردت من هذا العرض الموجز عن كتاب الإمامة للسيد محمد رضا فضل الله، أن أبيّن قدرة السيد على تبيين المطالب، وإيصال الفكر إلى الآخرين، وأنّه يمتلك ذهنيّة وقادة، ولو أتيحت له الفرصة في العمر والعمل، لقدّم السيد محمد رضا من الأفكار ما أغنى به فهرست جبل عامل، ولربما كتب وضاع أو تلف بسبب الأوضاع الأمنيّة وخوف الناس على هذا التراث، فهناك الكثير من المخطوطات، وجدت تالفة بسبب الحرص عليها، ومنع وصول أهل البغي إليها.

وهذا المقدار، مما وصل إلينا عن السيد محمد رضا فضل الله، يكفي للدلالة على مكانته العلمية والأدبية، مضافاً لامتلاكه القلم والجرأة في التعبير، والشجاعة في أخذ المواقف.

الافتتاحية

السيد هاشم صفي الدين[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2]

الكلمة الطيبة قبل أ ن تكون حروفاً ومعاني هي هداية وأنوار تخرق حجاب القلب فتستقر في أصول الفطرة وتنبت في ربوع التوحيد وتنفرج عن حقائق معارف تتكاثر وتنمو فروعاً لا يتسع لها المكان ولا يقف عطاؤها عند حد ويطيب جناها ذكراً يأبي التلاشي ويزهر ثمرها فوحاً ونسيماً وعطراً ألطف من الزمن وأرق من خواطر الفكر لتشق طريقها في مسارب الحياة متعاظمة ومتجددة مع كل جديد فكأنها تنبعث للتو فلا تبلى مع الابدان ولا تطوى في صفحات التاريخ وقساوة أيامه ووقائعه بل ان القهر والاجحاف والتنكر يزيدها اختماراً بقدر اندماجها مع الحق والاخلاص وبمستوى قدرتها على غزل الفكر والروح والعلم والادب والجمال والفن لتحيك من هذا كله سمواً يشتد جلاء وسطوعاً ويحفر في الانسانية تجربة مضافة تراكم الاكتمال الانساني نحو الكمال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[3].

(١) رئيس المجلس التنفيذي في حزب الله

(٢) سورة ابراهيم، الآيتان ٢٤ /٢٥.

(٣) سورة لانشقاق، الآية ٦.

هؤلاء هم الطيبون المتأصلون والمتجذرون في منابت المعرفة والاخلاص لا ينتهون ولا يقفون عند حدود لقائهم لربهم والتحاقهم بمعشوقهم. حين يحققون غاياتهم وأمانيهم فيسعدون في مقعد صدق عند مليك مقتدر ذلك ان جوهرهم الحي والمتلألأ يتساقط على البشرية رحمة وحياة واستقامة كماء المطر لا ينقصه الهطول ولا يوقف جريانه الزمن ولا تنأى به توارد الاحداث ومضي السنين وتعاقب الاجيال فهم باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة.

إنهم العلماء الربانيون والحجج الظاهرة والنعم الوافرة والانوار الهادية بهم استقام أمر الدين وعلى أيديهم حفظت الشريعة وانتصبت اعلام الايمان ورايات الحق والاصلاح، هم أوتاد الحقيقة الراسخة ومدار المعرفة الأصيلة، ودوام الذكر الجميل وتوازن الطباع والسجايا وميراث الشجاعة والعدل والشهامة وفي أي مجتمع وجدوا أو أرض زرعوا تطيب الحياة وتعمر القلوب وتحيا الانفس وتزهر العقول ولو بعد حين.

لجبل عامل حظ وافر من هؤلاء الافذاذ فامتاز بهم علماً وأدباً وأخلاقاً وطيباً وشهامة فجاوز حضوره الافاق بفضل معدنهم الصافي ورسوخهم في ميادين العلوم التي قلّبوها وجوهاً وزرعوا فيها بذوراً وانتجوا منها الآلىء وفيوضات غمرت أجيالهم المتعاقبة ما أنساهم ظلم القريب والبعيد وغالبوا قهرهم بالقناعة والتواضع والصبر وتناقلوا القيم إرثاً بالانفاس الطاهرة الممزوجة بوجع التاريخ وحب الآخر حتى لو كان من الذين ما انكفأوا يوماً عن توجيه سهامهم إليهم فاحتملوها تضحية واحتساباً وأملاً في ان يُورق شجرهم يوم يسفر الحق عن وجهه المنير كاشفاً عن مخبوئهم الرصين ومحارهم المدخر والثمين ممسوحاً بلفحة الحب والحنين.

ان علامتنا المقدس السيد محمد رضا فضل اللهﷺ أحد هؤلاء الاعلام العاملين الذين شاءت الاقدار وسنن اظهار وجه الحقيقة ان نتعرف على بعضٍ من مكنون علمه الغزير وأدبه الوافر وفرادة قلمه بعد مضي قرن كامل لنكتشف في شخصيته هذا الجوهر المكتنز لأبعاد عديدة وعميقة وضعته في مصاف العلماء الربانيين الذين مثلوا القدوة والنموذج والاسوة.

قبل ان اتطرق الى بعض المميزات التي طبعت شخصية وإرث هذا العالم الالهي من الضروري الاشارة الى الظروف السياسية والاجتماعية والمعيشية التي رافقت مرحلة حياته وعطائه فكانت صعبة وشائكة وضاغطة ومعاكسة تقتضي انصراف العلماء في جبل عامل الى اولويات وهموم ومشاغل تفرض التقوقع والانكفاء نتيجة الظلم المتلاحق الذي ما غادرهم يوماً أبداً في ظل متغيرات فكرية ودولية وسياسية وارهاصات الحروب الكونية، ايذاناً بتبدل خارطة المنطقة لحساب مصالح الدول الكبرى، ففي مثل هذه الظروف نرى المقدس السيد محمدرضا قدس سره حاضراً في مجالات عديدة، ومهمة مثبتاً فضائله وفارضاً لخصوصياته ومقتحماً لساحات ذهل عنه كثيرون وهذا ما يجعلنا نحتار أمام قدرة أمثاله على الابتكار والتميز.

ومن خلال مراجعة ما نشر وكتب وعلم عن حياته سأتوقف عند ما يلي:

في العلم:من خلال التأمل في مساره العلمي في اطار العائلة والاساتذة في لبنان وخارجه يمكن ان نضع ايدينا على المستوى العلمي الراقي الذي عاش في ظله فاذا انضم الى هذا كله ذكاؤه الوقاد واخلاصه الصافي وقريحته المتفتقة فانه مدعاة لانتاج فاخر من الطراز الرفيع الذي يحضر قوياً في مصنفاته القليلة التي سلمت ووصلت إلينا وسأكتفي في هذا المجال بالتوقف عند الكتاب الذي نشر تحت عنوان الامامة لنعرف بسهولة أننا أمام شخصية ممتلئة ومشبعة بالمعارف والعلوم النقلية والعقلية فطريقة الاستدلال التي اعتمدها تعتبر فريدة في إحكامها حيث قدم لمقصوده بذكر عدد كبير من الايات القرآنية واستخلص مضامينها وغاياتها بحذاقة ليُحكم عراها بالعقل والحكمة والفلسفة والنظام العام وسيرة العقلاء والامراء فينتج من رصف المقدمات ومحاكاتها للبديهيات ببراعة الوصول الى مراده في اثبات لابدية وحتمية الامامة ودورها وموقعها الديني كأصل ديني وقرآني يغني الدليل عن كثير الحاجة لسلوك الطرق التقليدية المتبعة في تحقيق مسألة عقائدية وتاريخية ومفصلية وأظن أن هذا النمط غير مسبوق وأظن ان كتاباً كهذا جدير بالاعتماد عليه درساً وبحثاً في

الحوزات والمعاهد العلمية ثم ان هذا التعمق وملاحقة الموضوع من زوايا عديدة يؤسس لمنهجية علمية نراها جلية في مختلف ابحاثه وقاعدة متينة تبنى عليها نتائج جليلة كمعالجته لموضوع الاجتهاد والعلماء وادوارهم تأسيساً على فهم واسع وممتد لموضوعة الامامة.

في السلوك والعرفان: على ما يبدو من نصوصه الجلية في مقاصدها والمشرقة في دلالاتها مضافاً الى ما حظي به من اساتذة لهم باع في هذا الشأن وما انطوت عليه نفسه الهادئة والساكنة جعلت اهتماماته منصبة على غايات روحية وايمانية لم تغب عن رؤيته الصافية للامور كافة فتحلى ببصيرة متيقظة اعانته على معالجة ادق وأخطر المسائل الاخلاقية والحكمية وما يرتبط منها بتهذيب النفس في كتابه (ميزان العدل) السمكية) الذي يفصح عن غور عميق وفهم دقيق وتجربة صادقة في سَوق النفس نحو التقوى والقناعة والزهد والتطلع دوماً الى ما بعد الموت وقد اعانه في ذلك حسن بيانه وعذب كلامه في ... المعنى وافاضة النفس عما يختلج فيها وما يساورها وسأكتفي بذكر مقطع واحد حين يقول: ويحكِ يا نفس هذا عقلك أطفأ مصابيحَه حبُّ الشهوات وتراكمت عليها من الوساوس الظلماتُ وفكركِ كَلَّ من الخوض في مذاهب الدنيا بخائبه وأظلمت عليه الى الآخرة مذاهبه ووهمكِ لا إيابَ لشارده ولا ريَّ لوارده وخيالك على تكرر الآناء يخبط العشواء ويتسنم الظلماء .وملاحظة اشعاره في هذا المضمار توضح مراداته اكثر فمن جملة ما يقول:

يسكر الشباب وحرص الشيب والامل قد أشكلت عندها الغايات والسبل
كم مدلجٍ سادرٍ في فجها فمضى تهوي به في المهاوي الأنيقُ البزل

الى أن يقول:

ضلت مساعيك يا من راح يطلبها إلوِ السُرى قبل أن يلوي بك الأجل
فأمهد لنفسك ما دام الحراك بها من قبل ان تُقبض الاسماع والمقل
تلك القرون المواضي قبلنا درجت على المنون وفيها يضرب المثل

في الادب: حين تأملت في ما نشر له من مؤلفات علمية أو شعرية أو رسائل متعددة ادركت انه والبيان صنوان فالبلاغة العالية والفصاحة البينة أشربتا في مطالبه العلمية المتخصصة فهو صاحب قلم لا يجري الا وزناً وايقاعاً فاضاف الى إحكام العقل وتراصه متانة التعبير وجماله فلا يكاد يَخرج من جعبته الا اللآلئ الفاخرة مع مقدرة نادرة على الجمع بين فنون الكلام واساليبه ففي موضوع واحد ينقلك من شعر مسبوك وافر وغزير على طريقة المتنبي أو ابوالعتاهية الى نثر مسجوع تتلاطم فيه المعاني ازدحاماً والالفاظ فرادة على طريقة نهج البلاغة لسيد البلغاء عليه السلام، فترى في كلامه أنساً وجذباً واتساقاً وانسياباً يحبب إليك المعنى ويربطك بالمقصد وتشعر معه انه قادر على الاستمرار الى ما شاء الله لأن أدبه اتكأ على مخزون علمه وثقافته الغنية والواسعة.

فليس بيانه عجيباً لأمثاله، اذ وجدته ثاوياً في العلم عند محرابه، يلثم من رحيق نشوه ما صفى، يخرج من فم عقله سحر رضابه، يلوي الحرف اشكالاً لمراده، يغزل المعنى فيضاً في سبك جوابه، لله دره في جمع ما بان وخفي، كأنه سلطان الكلام في ذهابه وإيابه.

في دور الفقهاء والعلماء: لقد كوّن هذا العالم الرباني فهماً متقدماً وتشخيصاً كاملاً وصائباً لدور ووظيفة الفقهاء والعلماء في زمن الغيبة الكبرى متجاوزاً في ذلك الطابع التقليدي الذي ساد في مراحل واجواء حشرت دور العلماء في زوايا محدودة واستند قدس سره في رؤيته على ادراكه الواسع بضرورة حفظ الشريعة بالاجتهاد والتبحر منضمين الى التقوى وسلامة النفس والاعراض عن الدنيا وان يجسد العالم القدوة للعمل والهداية وهذا بحد ذاته يتطلب تصدياً وحضوراً في المجتمع وبين الناس لبيان الحكم الشرعي ومواجهة الفساد والظلم والحيف ونصرة المظلوم واقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلها بنظره تعبر عن الوظيفة المتكاملة التي لا تقبل التفكيك كما ان النكوص والتراجع عن هذه المسؤولية سيكون سبباً لشيوع البدع

وهيمنة الظالمين وتمزق الأمة وضياعها، ان هذا الفهم يعد سباقاً وقادراً على مواكبة التحديات التي لا تجيز للعالم ان يقف منها وفيها موقف الحياد والمراقب فحسب.

الوعي والمواقف: أهل جبل عامل في تلك الحقبة فقراء ومعدمو الحال تتالت عليهم النكبات والمجازر وأريد لهم ان يقبعوا في زاوية معتمة من زوايا التاريخ وظلمه وقسوته ولم يكن لهم حظ في السلطة ولا مكانة أو اعتراف لهم بحقوقهم ولا بأدوارهم ولم تكن آنذاك وسائل اتصال واعلام، السائد عندهم هو القهر والجوع والاوجاع والسلاطين والامراء يتخطفونهم لسبب أو من دون سبب ففي مثل هذه الاحوال القاسية اقتحمت العالم العربي والاسلامي مشاريع الاستعمار والهيمنة والاحتلال، في مثل هذه الاجواء يتوجه العلامة المقدس قدس سره برسالة الى السلطة العثمانية مستنهضاً وصارخاً بوجه الاحتلال الايطالي لليبيا ومحذراً من التهاون ومخاطره على الامة ووحدتها ومنبهاً الى الغرب واطماعه:

فنهضاً يا ليوث العرب نهضاً لنا قد اضمرت شراً اوروبا

أليس من حقنا ان نسأل ما شأن عالم في جبل عامل بما يجري في ليبيا، بل لنا أن نسأل كيف عرف طبيعة المخطط الاستعماري آنذاك ؟ وهل كان سلاطين الدولة العثمانية الغارقون بظلمهم لجبل عامل قد سمعوا بإسم هذا السيد الجليل؟

نحن أمام مشهد عظيم من مشاهد الوعي المبكر والتعالي والتضحية من أجل الأمة ووحدتها ففي الوقت الذي استشهد فيه اخوه على أيدي الاتراك كما اعدموا ابن عمه وكثيرين من أهله واحبائه فإنه يهب لنجدة الأمة ووحدتها، انه صوت العلم والمعرفة والوعي والاخلاص الذي لو تمت الاستجابة له لما تجرعت الامة ما تجرعته من كؤوس الذل والهوان والتشتت ولما كنا اليوم في عالمنا العربي والاسلامي نترع الغصص والالام والهزائم والعلقم والشوك والشجى.

هذا الوعي هو ارث ومنهج المدرسة العاملية الاصيلة وهو السيرة التي اقتدى فيها السيد محمدرضا بأجداده واعمامه من العلماء والشعراء والمجاهدين فأحدهم الذي عمل على حشد الطاقات لمواجهة جيش أبي الذهب المعري الذي حاول احتلال جبل

عامل كما وقف الى جانب الشيخ ناصيف نصار بوجه احمد باشا الجزار وهو السيد فخرالدين الذي تحدث عن المقاومة في سنة ١٧٧٥م:

هي البيض يروي كل صاد شرابها كما النمر يردي كل عاد شهابها
وهل أزهرت بالمجد أيام ماجد وما كان من برق المواضي سحابها
أبت همتي أن تقبل الضيم صاحباً كأن نعيم الخفض فيه عذابها

الى أن يقول:

دع العيش ذلاً فالمعالي وان نأت لكل أبي في الرجال إيابها

هذا هو خطاب المقاومة اليوم وهذه هي جذورها المتأصلة وهذا هو التاريخ الذي يحكي علماءنا الاطهار وينعكس في مرآة واقعنا مقاومة صادقة في انتمائها بالعلم والادب والشجاعة والتضحية والوعي والوحدة فمقاومتنا اليوم على صورة العالم الرباني السيد محمدرضا قدس سره هي مقاومة العلم والوعي والحكمة وتحمل المسؤولية بوجه المتربصين بالأمة شراً سواء كانوا صهاينة أو استكبار غربي أو ممن أعمى الله قلوبهموأعشى ابصارهم وسد نوافذ عقولهم فجعلهم يداً بأيدي اعدائهم يحركونهم لأهوائهم يشتدون على من اراد بها شراً وتفتيتاً وتقسيماً.

إن الوفاء لتاريخ علمائنا الأطهار يضعنا دائماً في موقع تحمل المسؤولية مهما كانت التضحيات فيها جسيمة ويفرض علينا أن نبقى على خط الإستقامة والوعي فلا تحرفنا الأحداث وقساوتها ولا المظالم واوجاعها ولا التهمُ واحفادها عن سلوك دربٍ خطه سلفنا الصالح بالمعرفة والايمان والاخلاص والكلمة الصادقة وعبروا عن كل ذلك بأدبٍ رصين وفنٍ جميل ورفيع ليبقى الذكر الحسن دائم العطاء والاستمرار مع كل جيل فللعلم بيوت كما للأدب شاهقات تزدان جمالاً وقبابا والقلوب أوعيةٌ لا يتسع منها لعلم آل البيت إلا ما طهر وطابا، انه التوفيق نصيب من أخلص وجدّ في العلم وابتغى إلى ربه مآبا هكذا يخلد ذكر من أحسن صنعاً فسطر في الملكوت كتاباً.

والحمد لله رب العالمين.

الشيخ عبد الحليم الزهيري[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

... وسجل بطولاتها المفتوح يوماً وأبداً.

... لبنان مدينة قصيرة الأطراف مترامية الأوصاف، فحين تدنو للكلام عنها ترتدو حياءً من فصاحة أهلها وسمو أرزها الباسق، على الرغم من عتو الرياح القادمة من كل الجهات، لبنان مزيج من السحر والشعر، ومنهل للعلم والمقاومة.

جئتكم من العراق، وبأطراف عبائتي غبارُ الحرب، ودخان المفخخات وأبخرة السياسية، كما قال شاعرنا السيد مصطفى جمال الدين ـ رحمه الله ـ في قصيدته من الجنوب إلى الجنوب:

من جنوب العراق جئتك يا لبنان ... والظلم بيننا أنسابُ
لكم في سهول أهوارنا صرعى ... نحول مريضة واحتراب
ولنا في تلال (جبشيت) جرحى ... دمهم في عروقنا سكاب
ومتى أحرق الصنوبر غاز ... شبَّ في باسق النخيل اللهابُ
من جنوب العراق جئتُ وهميّ ... همُّ لبنان والمصابُ مصابُ[2]

مصابٌ واحد...

---

(١) مستشار رئيس الوزراء العراقي

(٢) هذه أبيات من قصيدة للشاعر الأديب الدكتور مصطفى جمال الدين، التي جاءت تحت عنوان- من الجنوب إلى الجنوب.

... نعم جئت من العراق، ومن الجنوب، ومن النجف، ومن الحلة (الفيحاء)، باعتباري من أهل (الحلة)، إلى لبنان وإلى جبل عامل.

جبل عامل شقيقة أمي (الحلة) (بابل)، اسمها التاريخي والحضاري الممتدُّ لآلاف السنين من الحضارة والنور والعطاء، الحلة تشبه جبل عامل، كما العراق يشبه لبنان، وبغداد تشبه بيروت، ولكن وجه الشبه مختلف، الحلة وجبل عامل مدينتان عالمتان مجتهدتان، فبين المحقق الحلي والعلامة الحلي والشهيدين العامليين، علامة شبه تصل إلى حد التناسخ، تجمعهما مدرسة أهل البيت، ويلتقيان في بحر من العلم والفقه والأدب، هذه المدرسة التي زوّدت العالم أجمع بآلاف الفقهاء والمجتهدين، وتخرّج منها: الإمامان الشهيدان الأول والثاني اللذان ينحدران نسباً من هذه الأرض الطيبة، فورثا منها علماً ومقاومةً وتضحية.

أما شبه العراق بلبنان، فهما وجهان باستهداف واحد، وعدو مشترك، يشتركان في مصير واحد، لأننا نشم رائحة البارود في الأزقة والبيوت هنا وهناك.

تواجه أيها الأخوة، أمتنا الإسلامية أخطاراً كبيرة ومشتركة، علينا أن نعدَّ لها مشتركين ما نستطيع من عزم وقوة ومقاومة وتخطيطاً، لأنّ المؤامرة تريد مسخ هويتنا من داخلنا، ومن تشويه دين إسلامي متسامح الذي جاء به رسول الله ﷺ، رحمة للعالمين، يريدون أن يلطخوا قبابه الخضراء بلون الدم لكي يسلبوا منه لون الحياة ورائحة الربيع، لا يريدون لنا أن ننطلق من جوهر هذا الدين لنحاور به الآخرين، كما علمتنا مدرسة لبنان والعراق الحوزوية، اللتان تعلّما ذلك من مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي عاصرت وعايشت وتعايشت مع جميع المذاهب والأديان.

نحن في العراق، وأنتم في لبنان، بل نحن في لبنان، وأنتم في العراق، لا فرق، وجميعنا في العالم الإسلامي والعربي، نتعرض لهجمة شرسة ومنظمة وممنهجة بطمس هويتنا، واستلاب المنظومة القيمية والأخلاقية من ديننا، وتشويه صورته، وهي وجه آخر من المواجهات، التي تتعرض لها الأمة، من التحديات الخارجية من خلال الإستعماري

والإحتلالي، والأشكال الأخرى للمواجهة، فهناك أصابع مجهولة أو معلومة، اختطفت الدين من داخله، وأصبحت تقتل وتُهجّر وتُفجّر تحت غطاء الإسلام، وعباءة الإسلام.

اشتدت الهجمة في العراق، فتصدى لها علماء الدين والمجاهدون، بقيادة المرجعية العليا في النجف الأشرف، التي نبهت وتنبهت من هذا الخطر الكبير من خلال بياناتها وتوجيهاتها، التي تحثّ على الإلتزام بالدستور والمشاركة في الإنتخابات، وبناء الدولة، وإقامة الحوار مع الجميع، لأن البناء الحضاري والدستوري يقضي على الفساد، والإرهاب، وأخيراً صدرت الفتوى الجهادية التأريخية من قبل سماحة آية الله العظمى المرجع الأعلى السيد السيستاني (حفظه الله)، لمحاربة الإرهاب، وقد هبّ أبناء العراق من كل البقاع، تلبيةً لهذا النداء معلنيين استعدادهم للشهادة، دفاعاً عن الدين وعن الله.

أيها الأخوة الأعزاء، إنّ هناك خطة لإعادة تشكيل خارطة جديدة للمنطقة، وقد وضعت لها ملامح هنا، وهناك لتشويه هويتنا، ولذا يأتي هذا المؤتمر التكريمي للعلامة السيد محمد رضا فضل الله قدس سره في إطار الدفاع عن الهوية في إحياء الرموز وتكريم العلماء، لأن استعادة ذكرى العلامة الفقيه والأديب الشاعر السيد فضل الله هي استعادة ذكرى لجيل ثامن من العلماء والعظماء، واستعادة لذكرى الشهادة والشهداء، وللشهيدين العامليين الذين رووا لنا بدمائهم ومدادهم، مسيرتنا العلمية والجهادية، وهو تكريم لآل الصدر، هذه الأسرة التي تركت علامات فارقة في جبين العصر الإمام السيد موسى الصدر، والإمام السيد محمد باقر الصدر، والشهيد محمد صادق الصدر (رضوان الله تعالى عليهم)، وغيرهم من أفذاذ هذه الأسرة، وهو تكريم لآسرة آل (فضل الله) التي أسهمت في تطوير الحركة الفقهية والأدبية والحركي وتكريماً، لكل هذا الجيل الطيب المبارك.

أيها الأخوة الأعزاء، بين ولادة السيد فضل الله، وهذا المؤتمر قدر كامل من الزمن والمتقلبات والتحولات من شتى مجالات الحياة. لن تستطيع هذه التلقبات، أن تمحوا ذكره وتجعل القائمين على عقد هذا المؤتمر، ينشغلون عنه في غيره من التحديات

في ظل الواقع المهزوم، من هنا نتقد بالشكر الجزيل للقائمين على هذا المؤتمر، وأخص بالذكر المشرف على جمعية الإمام الصادق عليه السلام لإحياء التراث العلمائي سماحة الشيخ حسن بغدادي، ومسؤوله السيد هاشم صفي الدين (حفظه الله) على هذه المبادرة. لأن العلامة لم يفارق الحياة بعد، فهم يحيون رمزاً من رموزنا لإحياء هويتنا، وهذا هو ديدن كل الذين ساهموا في رفد الحياة بقيمها علماً وأدباً وإبداعاً، ومواقف لا تنسى، كما يقول العلامة السيد محسن الأمين:

كذا إذا انحسر العمر ابتدأت كما لو أن حين يحبو يبدأ العمر
والمبدعون مناياهم تضاعفهم فكلما قل من أعمارهم كثروا

من أرض ولادته، هنا في جبل عامل، إلى النجف الأشرف التي عاد منها، ومعه جبل من العلم والأدب والفقه، جاء بهذا الجبل من العلم، وليس بمقدور كل أحد من الذين قصدوا النجف، لأن النجف لا تعطي، لمن يبخل عليها إلا للتلقي الإستعداد كثيراً، الذين درسوا، لم يحصلوا على ما حصل عليه، كما هو مدون في سيرته فقد اشتهر بالشعر والمعرفة والبلاغة، وقال عنه السيد حسن الصدر، المؤرخ المشهور في كتاب تكملة أمل الآمل: «إنه ذو علم، وأدب وشعر، ونثر، وقلم حسن، وهو أحد حسنات هذا العصر»، أمّا المؤرخ علي الخاقاني في كتابه شعراء الغري، فقال عنه: «شاعر شهير، وكاتب مبدع، وله نثر، ترك لنا السيد آثاراً يستضاء بها، وعلى الرغم من الظروف السياسية القاهرة، والمعيشية التي كان وكانوا يعيشونها معاً، فقال شاعرهم في تلك الفترة المظلمة:

قلب الجنوب من الظما قد ذابا والطفل فيه من الحوادث شابا
والفقر حكم في جميع جهاته من جلده الأظفار والأنيابا
أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ أحمد مبلغي[1]

عالم مجدد، مصلح، جمع بين الفقه والفلسفة، وجمع بين النظرية والتطبيق.

في الأدبيات الدينية نجد كلمةً لا بد في العلوم من أن ننطلق منها؛ وهي العلم النافع.

الإسلام لا يريد العلم لكي يطرح، ولا ينزل إلى الواقع، ولا يطبق على الواقع، بل دائماً يريد أن يحذف الوسائط بين العلم والعمل، وأن يجعل المجتمع والعلماء يحاولون تطبيق العلم بسرعة على قضايا المجتمع.

الإسلام عندما يطرح الفقه، لا يريد أن يكون هناك فقهاء يجلسون في بيوتهم، وهم غافلون عن واقع المجتمع، فأورثوا فقهاً وأوجدوا قضايا فقهية لاتنفع المجتمع، الفقه في الإسلام فقه هادف، ولذلك نجد في القرآن الكريم ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ ﴾، ثم بعده ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾، هنا تتبيّن الهدفية من الفقه، الهدف هو إيجاد الأثر، هو التأثير على المجتمع، هو جعل المجتمع ينتفع بهذا العلم وهذا الفقه. أما مجرّد الفقه، هو مجرّد كلمات، تُبثّ في الفضاء، وهي لا تنفع أصلاً، والهادفية للفقه، إنما يُعلم حالها من القوم الذين هم الهدف، لأن الفقيه، لا بدّ أن يأتي إلى القوم وينذرهم، فلا بدّ من أن ينظر إلى القوم.

---

(١) عضو مجلس الخبراء في الجمهورية الإسلامية في إيران

وهنا شيء لطيف لا بد من الإلتفات إليه، وهو أنّ القوم لا سيما في هذا العصر، وجملة من العصور الماضية المتقدمة علينا، القوم قد يتكوّنوا من السنة والشيعة، وقد يتكونوا من المسلم وغير المسلم، فالفقيه سواء كان فقيهاً من السنة أو كان فقيهاً من الشيعة، لا بدّ أن ينظر إلى القوم، وأن يوجه ويخاطب هذا القوم، وأن يفهم هذا القوم، ولذلك نجد أنّ الكثير من فقهائنا كانوا ينظرون إلى واقع المجتمع، فالشهيد الأول والشهيد الثاني، هما المثالان البارزان لنا، هذان الشهيدان، كانا فقيهين بارزين، ولكنهما لما رأوا أنّ المجتمع مكوّن من السنة والشيعة، دخلوا في فقه المذهب، أي في مذهبهما (مذهب الشيعة)، كما دخلوا في فقه مذهب أهل السنة، ودرّسا هذا المذهب أيضاً، بل كانا عالمين، وفقيهين في جميع المذاهب، وكانا قد أسّسا الفقه المقارن، مع لونه الخاص، وكانا قد أعطيا هذا الفقه مرحلة متقدمة، بحيث ننتفع نحن اليوم من آثار و نتائج فقههما في مجال الفقه المقارن.

لبنان منطقة، خاصة للشيعة والسنة معاً، مناخ لبنان مناخ خاص، ينتج الفقه ويصرف بسرعة في المجتمع، هذا امتياز، سُجّل لكم في التاريخ، علماؤكم لم يكونوا فقهاء منعزلين عن المجتمع، بل كانوا فقهاء يدخلون في الميادين الإجتماعية، ويبثّون أفكارهم. قلّما يوجد فقيه لبناني، وهو غير مصلح، والشيعة بل جميع العالم الإسلامي يلتفت لما ترك الفقهاء اللبنانيين على مرّ الزمن. وأنا أقول: حتى في الزمن المعاصر، نجد أن هذا المناخ، المستعد للإستفادة من العلوم، لصرف العلوم في مواقعها، وفي القضايا الإجتماعية، هذا المناخ حتى في هذا العصر، قد كان له أثره البارز والمميز في الجمع بين العلم والعمل.

الإمام السيد موسى الصدر (أعاده الله)، عندما جاء إلى هنا، صحيح أنه كان مصلحاً، وذا رأي بالعلاقات الإجتماعية، بصورة متميّزة، إلا أنّ شخصية الإمام موسى الصدر، ليست كلها منه، بل أيضا من هذا المناخ العلمي الجاد اللبناني. ولذلك هو جاء، وأحدث ثورة فكرية قلّما يوجد مثل هذه الأفكار التي تركها على هذه الساحة.

بالنسبة للتعايش الإسلامي، العالم دائماً بحاجة إلى مثل دراسة أفكار الإمام موسى الصدر، لأن ما تركه لكم، وبفضل مناخكم المستعد، هو المثال الأعلى حقيقةً.

حزب هو حركة، يمثل إرادتكم لإبراز الفقه والعلوم الإسلامية بسرعة إلى المجتمع، فإنّ الكثير من العلوم الإسلامية في هذه الحركة تتجلى وتتجسد، وهذا بفضل العلماء، ولذلك نجد اليوم لبنان بفضل إرادتكم يلمع نجمُه في العالم الإسلامي، نحن نكرّم هذا العالم، من السلالة اللبنانية، وهوعالمٌ مصلح، عالمٌ مجدّد، عندما تقرأ كتبه ترى أنه لم يكن فقط فيلسوفاً، بل كان يحاول الإنطلاق من الفلسفة إلى ما ينفع المجتمع.

من خلال قراءتي لكتابه (ميزان العدل)، رأيت أنه يمتلك رؤية فلسفية قوية، تعادل ما قاله الفلاسفة الماضون، إلا أنه قد حاول تسوية هذه المبادئ الفلسفية إلى واقع العمل.

أنا أشكر هذا الحفل الكريم، وأتقدم بالشكر إلى سماحة الشيخ حسن بغدادي، لمحاولته عقد مثل هذه الندوات والمؤتمرات القيّمة، وأتقدم بالشكر أيضًا إلى سماحة السيد هاشم صفي الدين والعلماء الآخرين، وأشكركم جميعاً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ حسن بغدادي[1]

أيّها الحفل الكريم..

يأتي مؤتمرنا هذا تكريماً لأهل العلم، ولعطاءاتهم المضيئة، التي استنار أهل الجهل بنور علمهم، فأخرجوهم من الظلمات إلى النور، وأخرجوا من عقولهم الشبهات التي زرعها الشياطين، ورسموا لهم طريق الخير، فكانوا الأدلاء على الله تعالى، وهداة الدرب والحجة الظاهرة على الخلق في زمن غيبة المعصوم عجل الله فرجه الشريف، فكان الراد عليهم رادًّا على الأئمة الأطهار عليهم السلام، وبالتالي هو رادٌّ على الله عز وجل.

من هذا النور خرج علمٌ من جبل عامل، هو السيد محمد رضا فضل الله، صاحب المواهب المتعددة في الفقه والأصول والأدب والفلسفة، من قرية (عيناثا) المتنوّرة، والتي خرج منها علماء وفطاحل، منذ النهضة العلمية الأولى التي تأسّست في هذا الجبل على يد شهيدنا الأول الشيخ محمد بن مكي الجزيني[2]، إلى عهد النهضة العلمية الثانية التي انطلقت بعد نهاية النكبة سنة ١٨٠٤م/١٢١٩هـ[3].

---

(١) عضو المجلس المركزي في حزب الله، والمشرف على أعمال المؤتمر

(٢) أبو عبد الله محمد بن الشيخ جمال الدين مكي إبن الشيخ شمس الدين محمد بن حامد بن أحمد المطلبي نسباً الحارثي الهمداني أماً النباطي الجزيني العاملي موطناً المعروف بالشهيد الأول، صاحب كتاب اللمعة الدمشقية، كان عالماً ماهراً فقيهاً محدثاً مدققاً ثقة متبحراً كاملاً جامعاً لفنون العقليات والنقليات زاهداً عابداً ورعاً شاعراً أديباً منشئاً، فريد دهره، عديم النظير في زمانه، استشهد سنة ٧٨٦ هـ في اليوم التاسع من جمادى الأولى في دمشق في دولة بيدر وسلطنة برقوق بفتوى القاضي برهان الدين المالكي وعباد بن جماعة الشافعي بعد ما حبس سنة كاملة في قلعة الشام.

(٣) المقصود بها، نكبة جبل عامل على يد الوالي العثماني أحمد باشا الجزار واستشهاد الأمير ناصيف النصار، حيث عمد العثمانيون إلى التفكير الجدي بوضع جبل عامل تحت الوصاية المباشرة، وكانت النكبة من سنة ١٧٨١م ـ ١٨٠٤م / ١١٩٥هـ ـ ١٢١٩هـ.

(عيناثا)، كانت إحدى الحواضر العلمية في هذا الجبل الشامخ، فلم تكن مجرّد قرية يسكنها أحد العلماء، إنما كانت مشروع توليد لهذه الطاقات، في مشروع استقطاب لحضور العلماء والطلاب إليها من خارج حدودها الجغرافية، فعلى سبيل المثال: حضر إلى (عيناثا) في أيام شبابه، الشيخ ناصر بن إبراهيم البويهي، وهو من سلالة ملوك البويهيين[1]، وبقي في (عيناثا) إلى أن توفي سنة ٨٥٣هـ، ودرس فيها على فضلائها، منهم: الشيخ ظهير الدين العاملي، وأصبح من فضلاء جبل عامل، ومن أدبائه المعروفين، وهناك العديد من الشهادات بحقه.

ومن الذين قدموا إلى (عيناثا) الشريف حسن ـ جدّ السادة آل فضل الله الحسني ـ قدم من مكة المكرمة، بداعي العلاج، وكان على صلة بعلماء (آل خاتون)، حيث تعرّف إليهم عندما كانوا يذهبون لأداء مناسك الحج والعمرة، حيث كانت زيارة الأماكن المقدسة في ذلك الزمن، تختلف عن اليوم من حيث مدّة البقاء، وإنشاء العلاقات مع أهالي وأعيان تلك البلاد.

السيد محمد رضا، ولد في هذه القرية المتنورة، ومن هذه العائلة الشريفة وذلك سنة ١٢٨١هـ ـ ١٨٦٤م، ويعود نسبه إلى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

شاءت الإرادة الإلهية أن يتوجه هذا الشاب نحو طلب العلم، مع أنّ والده لم يكن من أهل العلم، وإنما وقع في قلبه، توجيه ولده نحو هذا الطريق، حيث توقّع له أن يكون له شأنٌ في يوم من الأيام، ويُصبح أحدَ رجالات الإصلاح، ويصبح أحدَ الذين سينهضون بجبل عامل مجدداً، على الصعيدين العلمي والأدبي، مضافاً لمهام إصلاحية أخرى في الشأن الإجتماعي والسياسي.

لم يكن جبل عامل في تلك الفترة مهيّئًا لتوليد الطاقات العلمية، والإستغناء عن مراكز العلم في الخارج، بسبب قلّة عدد العلماء المتمكّنين من المتابعة في الدرجات

(١) الشيخ محمد بن الحسن الحر (الحر العاملي)، أمل الآمل، ج١، ص١٨٧.

العليا، مضافاً للإنصراف إلى أعمال أساسية، كانت تقتضيها المصلحة بعد نهاية النكبة؛ فالتبليغ الديني، وإحياء المناسبات وتثبيت عقيدة الناس، وبناء المدارس، وإعادة الحياة إلى طبيعتها، تحتاج إلى الكثير من بذل الجهد والوقت، لهذا كانت المصلحة تقتضي استنهاض من يجدون فيهم الكفاءة إلى طلب العلم، وتدريسهم المقدمات بإتقان، ثمّ إرسالهم إلى النجف الأشرف، للتفرغ الكامل والدرس على الأفاضل والأساطين الذين أعطوا كلّ وقتهم للتدريس والتصنيف.

كان السيد محمد رضا من هذه الثلة الطيبة التي انتسبت إلى المدارس الدينية في (عيناثا) و(حناويه) و(بنت جبيل)[1]، وبعد رحيل العلامة الشيخ موسى أمين شرارة سنة ١٣٠٤هـ، تفرّق الطلاب، وبعضهم انتسب إلى مدرسة السيد يوسف شرف الدين في (طورا)[2]، من سنة ١٣٠٥هـ إلى سنة ١٣٠٨هـ، حيث قرّروا ترك جبل عامل، والتوجه إلى النجف الأشرف.

لم يكن قرار الهجرة إلى العراق، بالأمر السهل، فمشقّة الطريق والمخاطر الصحية والأمنية، هذا ناهيك عن الحياة الصعبة في النجف، لكن هذه المعاناة كانت تنتهي عند مشاهدة القبّتين الشريفتين للإمامين موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد عليهما السلام، فبعد الزيارة والدعاء والتوسل بالله تعالى للتوفيق في هذا الطريق، يُعرجّون على كربلاء حيث المرقد المطهّر لسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، وأخيه قمر بني هاشم أبي الفضل العباس عليه السلام.

المحطة الأخيرة، تكون (النجف الأشرف)، حيث مرقد أمير المؤمنين عليه السلام،

(١) مدرسة (عيناثا) وكان تأسيسها على يد السيد نجيب الدين فضل الله، ومدرسة (حناويه) تأسست على يد الشيخ محمد على عز الدين، ومدرسة (بنت جبيل) تأسست على يد الشيخ موسى أمين شرارة.

(٢) السيد يوسف بن السيد جواد بن السيد إسماعيل بن السيد محمد الثاني بن السيد محمد الكبير بن السيد شرف الدين المتوفى في ذي الحجة من سنة ١٣٣٤هـ، وهو والد السيد عبد الحسين شرف الدين العالم العاملي الشهير، وكان عالماً فاضلاً تقياً نقياً وشاعراً شهماً كريم الأخلاق، سخي اليد تلوح عليه آثار النجابة والسيادة.
وبعد رحيل الشيخ موسى أمين شرارة، أشاد على السيد يوسف الشيخ محمد مغنية، بأن يشيدوا مدرسة في وسط البلاد، فكانت (طورا)، وبالفعل انتسب السيد محمد رضا إليها مع بعض إخوانه من سنة ١٣٠٥هـ إلى سنة ١٣٠٨هـ.

والحوزة العلمية الشريفة، وينسى معهما طالب العلم معاناته وآلامه، فلذّة المجاورة للحرم الشريف، ولذّة الحصول على المراتب العلمية وكمالات النفس، تُنسيه جوعه وعطشه، وبرد وحرّ تلك البلاد التي لا تُطاق.

وكان السيد محمد رضا فضل الله يتمثل قول الشاعر:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

بقي السيد محمد رضا في النجف، منكبّاً عل الدرس وتربية النفس، وفي الغالب يهتم طالب العلم بعلمي الفقه والأصول، ويحوز على كثير من المعارف بشكل عام سواء في الفلسفة أو علم الكلام والتفسير أو الأدب، من دون التركيز والخوض في تفاصيلها، بينما نجد السيد محمد رضا، قد أعطى الأمر حيّزاً من وقته للحصول على ملاكات علوم مختلفة، من: فلسفة، وعلم كلام وأدب، ومنهج إصلاحي وتربوي متكامل، وكأنه كان يَعدّ نفسه لمرحلة سيكون فيها أحد الذين يمتلكون القدرة على النصيحة للعلماء، والتوجيه للناس، وهذا ما ظهر في النجف الأشرف قبل العودة إلى (لبنان). وهذه ميزة كبيرة، ففي النجف غالباً لا يتصدى طالب العلم إلى الشأن العام، فالمبادرة للإصلاح والتوجيه، له هيبته وخشيته، أمام أولئك الأعلام والأساطين. وهذا إن دلّ على شيء يَدلّ على مكانته العلمية والأدبية، وعلى قوة حضوره الشخصي في عقول وقلوب هؤلاء الأعلام.

الوقت هنا لا يتّسع لذكر تفاصيل حول تلك المرحلة، ولكن إن شاء الله سوف أذكر بعض تفاصيل تلك المرحلة في بحث – محطات مضيئة من حياته الشريفة[1].

ولن أتعرّض في هذا المقام إلى دراسته في النجف الأشرف، وإلى مكانته العلمية، وإلى أساتذته، وسلوكه التربوي، وأترك الحديث عن هذه التفاصيل إلى ذلك البحث الذي أشرت إليه، مقدمة (الكتاب)، لكن في هذا اللقاء سأذكر نقطتين أساسيتين، في شخصية السيد محمد رضا، هما:

(١) بحث الشيخ حسن بغدادي

الأولى: ما أطلقه في كتاباته من رسائل وقصائد، تُدلّل على رؤيته لموقع الفقيه العادل في قيادة الأمة الذي هو إمتداد لموقع الإمام المعصوم عليه السلام في زمن الغيبة، وأنّ العالم الديني الجامع للشرائط، هو المسؤول الأول عن حفظ هوية وقضية هذه الأمة، فعندما تفقد الأمة هويتها وقضيتها، سوف تتعرّض للتمزيق والتشتت، وسيحلّ مكان عقلائها صبيانُها، ونحن نتحدث عن عالم ينتمي إلى مدرسة، لم تتخلَّ يوماً عن دورها في إصلاح الأمّة، وحفظ كيانها، مهما كان الجور ضاغطاً عليهم، ومهما كانت المخاطر محدقة بهم،فهل كان يتخيّل أحدٌ منّا، أنّ عالماً من قرية (جباع) في جبل عامل، يذهب إلى عاصمة الدولة العثمانية ليلتقي فقهاء البلاط سنة ٩٥٢ هـ، ثمّ يعود معزّزاً مكرّماً، هل هذا يمكن تحقيقه، لولا الإمكانيات العلمية المتعددة، والشجاعة الفريدة من نوعها، والدافع له هو الدفاع عن الدين، وعن الأمّة الإسلامية، ثم يسكن بعلبك ليدرّس طبق المذاهب الإسلامية الخمسة، إنّه الشهيد الثاني، الشيخ زين الدين الجباعي، الذي قتله العثمانيون في عاصمتهم (إسطنبول) سنة ٩٦٥هـ.

كذلك نجد السيد محمد رضا فضل الله، الذي سمع وعاش كلّ هذا الظلم العثماني، ومع ذلك لا نجده يحرّض عليهم في لحظة كان يُمكن له الإنتقام منهم، والفرصة مؤاتية، ومع ذلك لم يفعل لا هو، ولا إخوانه من العلماء، بل حاولوا نصرتهم أمام الخطر الأكبر. كان خائفاً على هذه الأمّة من التمزّق، لذا كان التوجه مع إخوانه العلماء على مساندة الدولة العثمانية، ومنعها أن تسقط أمام الغرب، عندما ظهرت ملامح سقوطها، وبوادر الحرب العالمية العامة، مع أنّه غير مأسوفٍ عليها، لما ارتكبته من بطشٍ وجهل، وتعصّبٍ طيلة قرون، وبالخصوص تلك الحقبة المشؤومة، والتي لم تكن بعيدة زمناً عن السيد محمد رضا، وهي نكبة جبل عامل على أيدي أحمد باشا الجزار سنة ١١٩٥هـ/١٧٨١م.

وعندما شنّ الطليان غزوتهم على مدينة طرابلس الغرب في ليبيا في شوال سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م، وهتكوا فيها كرامة المسلمين، وقف السيد محمد رضا فضل الله

محرّضاً على الطليان، ومستنهضاً الأمة حكومات وشعوبًا في سبيل نصرة المسلمين، من خلال قصيدة لا زال صداها إلى اليوم، وممّا جاء فيها:

أثيروها على الطليان حربًا عوانًا تنهبُ الأرواحَ نهبا
أثيروها وغى هيجا ضروساً تشبُّ بحومة الطليان شبّا
عليهم فاضربوا سور المنايا بجيشٍ يملأ الأكوان رعبًا
أثيروها أثيروها هياجاً فما غير السيوف لهنّ طِبّا
لنا إن أرغم الآنافَ ضيمٌ عرانينٌ شميمَ الضَّيم تأبى
لنا الغارات شاهدة بأنّا رأينا الموت في الغارات عذبا
إذا فطم الرضاع لنا وليداً على الغارات والغزوات شبّا

الثانية: كان السيد محمد رضا خائفاً على (اللغة) من التشوّه، وبالتالي الخوف على (الهوية)، حيث الإحتلالات والثقافات المختلفة التي تعاقبت على منطقتنا، فكان لا بُدّ من تحصين اللغة من خلال نشر الأدب والشعر، وكيف لا يكون كذلك وهو من تلاميذ تلك المدرسة التي شيّدها العلامة الشيخ موسى أمين شرارة، في (بنت جبيل)، حيث أطلق العنان للأدب والشعر، والمشروع الإصلاحي الذي عبّر عنه السيد محسن الأمين الذي كان أحد تلاميذ تلك المدرسة، فقال: «لقد قام سوق العلم والأدب في عهد الشيخ موسى أمين شرارة»[1].

لم يكن السيد فضل الله من الشعراء العاديين الهاوين للشعر، بل كان أديباً شاعراً محترفاً، وقصائده لا تحتاج إلى دليل ومؤيد.

هذه الإنجازات التي قام بها أو قدّمها كأفكار في لبنان، تصلح في رسم مساراتٍ أخلاقية وتربوية، وإلى تحمّل المسؤولية، وما كان هذا ليتم لولا أن التفت إلى نفسه في النجف الأشرف، فأدّبها وعاقبها، ونمت فيها الملاكات التي تُشكل ضمانة عدم

(١) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١٥، ص٥٢.

الوقوع في الرذيلة بلحظة غضب أو شهوة، فعصمها عن الخطأ من دون عصمة، وهذا يمكن فهمُه من خلال كتابه (السمكيّة)، حيث تلك الحادثة التي حدثت معه في النجف، وهي أكلة سمك، سقط في شهوة أكلها بعضُ الطلبة تحت عنوان (المزاح الغليظ)، فتنبّه رَحِمَهُ اللَّهُ إلى مكامن الشيطان الخفيّة، عند من يرون أنفسهم بعيدين عن مكائده وحبائله، فصنّف كتاباً سماه (السمكيّة) نسبةً إلى الحادثة. عالج الموضوع التربوي والأخلاقي، من خارج المألوف والمتعارف. فالكلّ يعرف أذيّة المؤمن حرام، والغيبة حرام، والكذب حرام، وإنما عالج الخلفيات والسلوك الذي يوصل صاحبَه إلى ارتكاب هذه الرذائل، من خلال تنمية الحسّ الإنساني، في مواجهة الرذائل الخفية التي تُوقع بالإنسان. وهذه الرذائل، لا يرتدع صاحبُها عنها لمجرّد معرفته الحلال والحرام، بل هو سلوكٌ يمنع من الوقوع في أمثال هذه المحرّمات، التي تصبح معها الملاكات حاكمة على موضوع المحرّمات، فلا يعود معها مكانٌ للتفكير بالحرام، فضلاً عن الوقوع به.

في الختام:

ما أحوجنا اليوم إلى شخصياتٍ علمائية من نسيج السيد محمد رضا فضل الله، العالم الواعي والرؤوف، والقادر على معالجة الكثير من القضايا، ذات الصلة بالتطور العلمي، وبالمنهج العقلي، وبتحمّل المسؤولية من دون قلق ولا وجل، وعلى سبيل المثال: معالجته قضية (الإمامة)، التي هي من أهمّ العناوين الملازمة للإبقاء على الأمّة مرتبطة بدينها وبنبيّها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبمعتقداتها، فسلّط الضوء عليها، إثباتاً لها من خلال النصوص الشريفة، وحاجة الأمة إليها، من خلال المنهج العقلي، لكونها حاجة إنسانية واجتماعية.

كما كان ـ رحمه الله ـ أحد مراجع جبل عامل، عاملاً بالتبليغ من وعظٍ وإرشادٍ وإصلاح ذات البين، وفصل الخصومات، وإحياء المناسبات الدينية، كما كان متصدّياً للمسؤوليات العامة، من دون أن يحصر دوره بالحدود الجغرافية لجبل عامل، إنّما تعداه

لتكون مسؤوليةً تحاكي شعوب المنطقة وحُكامها، ولو قُدِّرَ أن أعطاه اللهُ تعالى فسحةً من العمر، لربما قدّم الكثير من المطالب الفقهية والأصولية، وعناوين أخرى مختلفة. لكن القدر، والعشق اللامتناهي لسيد شهداء أهل الجنة الإمام الحسين عليه السلام كان السبب في تعجيل رحيله، فخرّ يوم العاشر من المحرم وهو يتلو المصرع على مُصاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام، من على المنبر، وأصيب برأسه الشريف، معتلاً عدّة أيام، ثمّ فارقت روحه الدنيا، وهي تلهج بحب الحسين عليه السلام والشوق إلى لقياه.

الأبحاث:

أد.طراد حمادة[1]

«الفلسفة والعرفان في أدب العلامة الفقيه السيد محمد رضا فضل اللّه»

ذهبت الترسيمة التقليديّة لميادين الفكر الإنساني إلى إقامة فاصل بين الفلسفة والأدب، لإعتبار أن الفلسفة إنتاج عقلي يستوجب تقديم الدليل العقلي لإثبات الحقائق أو اكتشافها والغوص إلى حقيقة الشيء في ذاته فيما الأدب إنتاج القلب وعند آخرين الخيال وعليه لا فرصة لقيام ما يسمَّى الأدب الفلسفي أو الفلسفة في الأدب وعندهم أن الفلسفة هي الفلسفة والأدب هو الأدب.

وتذهب الترسيمة التقليدية (الرسميّة) للقول أن أداة الإفصاح المشتركة بين الفلسفة والأدب وهي اللغة، تمثل بدورها عامل الإتصال والإنفصال، إن للغة الفلسفة خصائص تختلف عن خصائص لغة الأدب، وعليه يكون هذا المشترك في الإفصاح عن الفكرة هو بدوره عامل الإئتلاف والإختلاف.

ويذهب أنصار الفلسفة إلى أن أصولها وهي الدهشة والشك والقلق والتأمل هي أصول مشتركة بين كل من التجربة الفلسفية والتجربة الأدبية فيما تختلف النتائج والغايات بينهما. إن غاية الفلسفة الإنتقال من الدهشة إلى المعرفة، فيما يغلب على

(١) وزير لبناني سابق، أستاذ الفلسفة والتصوف في الجامعة اللبنانية

الأدب حب البقاء في حالة الدهشة، ويجعل من المعرفة هدفاً ثانوياً، إن التجربة الأدبيّة تجربة ذاتية، تشغلها معاناة الحال والبقاء فيه، فيما التجربة الفلسفية حركة في البحث عن حلولٍ لأبعاد التجربة الإنسانية على تعدد جهاتها.. مقبولة لدى العقل وكذلك الأمر بالنسبة لأصول القلق والشك والتأمل إن شك هاملت ليس شكاً فلسفياً، بل شك في تجربة القلق الأبدية التي لا خروج منها من الشك إلى اليقين. لقد طرح هاملت كل أسباب الشك الفلسفي، لكنه لم يخرج من دائرة القلق الوجودي، وكذلك أبو العلاء المعري الذي يختلف الشك عنده، عما هو في فلسفة الإمام الغزالي أو رينيه ديكارت.

والقلق الهيدغري الوجودي لا يجد حله إلا في النفس المطمئنة لأنه قلق ناتج عن وجود الموت. إن أساس كل هذه الأصول وجود الجهل الذي يطرده العقل بالمعرفة وهي هدف الفلسفة في الوصول إلى الحقيقة ولعل الصراع بين جنود الجهل وجنود العقل يتفق مع هذا الأصل الفلسفي.

لنا على هذه المقدمات التي نسبناها (جدلاً) إلى ما أسميناه الترسيمة shema التقليدية. ملاحظات نقدية أساسية تسمح لنا، بالقول بوجودٍ واقعي للأدب الفلسفي وتكون مدخلاً لدراسة الأبعاد الفلسفية والعرفانية في أدب العلامة الفقيه السيد محمد رضا فضل الله.

إن التجربة الفلسفية والأدبيّة تشتركان في الأصول وفي أداة الإفصاح، وأن الإنسان نفسه محل هذه التجربة وهو يملك العقل، والقلب والذاكرة والخيال، ويستخدم اللغة على تعدد مواردها في الإفصاح عن هذه التجربة.

إن الفلسفة تقدم نفسها مؤسسة للعلوم وعليه لا يكون الأدب في منأى عن اهتمامها ولكن كلما اقتربت الفلسفة من الأدب صبغها بألوانه الذاتية حتى تغلب هذه الألوان ألوان الفلسفة نفسها.

وإذا أردنا أن نحوّل هذه المقدمة إلى الأسئلة الإشكالية في مقدمة بحثنا نطرح ما يلي منها:

هل يمكن أن نعبِّر عن موضوعات فلسفية، مثل: الوجود والنفس، والعالم، والحرية، والموت والحب، في إنتاج أدبي، تشترك فيها الأنواع الأدبية من شعر ورواية ومسرح وقصة، وخاطرة، وحكاية، وملحمة، وسواها، إضافة إلى الفنون الأخرى الوثيقة الصلة بالأدب كفنٍ إنساني؟

هل تنسب هذه الأعمال عند إنتاجها إلى الأدب أو إلى الفلسفة، ومن هو الأصيل في نسبتها إليه؟

هل يتخلى الأدب عن خصائصه ليكون أدباً فلسفياً وهل تتخلى الفلسفة عن قواعدها لتلبس ثوب الأدب؟

هل عرف الإنتاج الإنساني هذا النوع من الإنتاج المشترك بين الفلسفة والأدب والذي ندعوه الأدب الفلسفي أو الفلسفة في الأدب؟...

إن الأجوبة عندنا على هذه الأسئلة، الإشكالية، إيجابية بمعنى ثبوت القول عندنا بوجود العلاقة الوثيقة والصلة اللصيقة بين الأدب والفلسفة، وأنه ثمة أدب فلسفي في تعبير التجربة الإنسانية عن نفسها.

لست بحاجة لتقديم الدليل النظري على ما أقول، لانتفاء الحاجة في هذا المحل، ولتحقيق المراد فيه والمطلوب منه وذلك من خلال دراسة الفلسفة والعرفان في أدب العلامة الفقيه السيد محمد رضا فضل الله.

وعليه تكون دراستنا للأدب الفلسفة عند فيلسوفنا الأديب وشاعرنا الفيلسوف هي الدليل والذي يقدم الأجوبة على الأسئلة الإشكالية محل البحث.

العلامة الفقيه السيد محمد رضا فضل الله رَحِمَهُ اللَّهُ عالم فقيه، أديب شاعر، فيلسوف متكلِّم، يعني مشتغل في مسائل الكلام الفلسفي وعنده منحى عرفاني صريح، وإذا أردنا تعيين مدرسته الفكرية ومكانته في هذه المدرسة بعد قراءة لإنتاجه القيم أمكننا القول أنه يمثل مدرسة جبل عامل في تيارها النجفي.

في فقهه عناصر المدرسة العاملية ذات الأصول النجفيّة مع منحى تجديدي صريح

وفي أدبه تراث جبل عامل معطوف على أدب النجف المتنوع الجمال.

هو ذلك المزيج الرائع بين عاملة والنجف، حتى يمكن القول أن في ثوب مدرسة النجف ألوان وخيوط عاملية المظهر نجدها بشكل واضح في إنتاج العلامة الفقيه السيد محمد رضا فضل الله.

يتصف شعر وأدب الفقهاء بالبعد الفلسفي ويندرج من حيث موضوعاته في مجال الأدب الفلسفي وذلك لأنه يشارك الفلسفة موضوعات أساسية في البحث عن الله وفي الله، ومسائل العالم والكون Cosmos والإنسان ومسائل النفس الإنسانية وهي موضوعات مشتركة في الواقع بين الفلسفة والدين يمكن الإفصاح عنها بالأدب على أنواعه.

وإذا كان شعر الفقهاء في بعض أنواعه خسر بريقه الإبداعي لصالح الإتجاه التعليمي أو الجدل الكلامي كالمناظرة والحكاية والأمثال فإنه يختلف في مستوى إبداعه باختلاف أصحابه وعليه فإننا لا يمكن أن ندرج أدب السيد محمد رضا فضل الله في هذا المحل باعتباره نموذج لأدب الفقهاء.

دراستنا للفلسفة والعرفان في شعر العلامة السيد محمد رضا فضل الله تستند إلى كتابيه:

١. (ميزان العدل) المشهور «بالسمكيّة».

٢. ديوانه المطبوع تحت عنوان (المجموعة) القصائد والرسائل.

كل من هذين الكتابين يتضمن نصوص شعرية ونثرية مع ملاحظة أن النص النثري عند السيد محمد رضا فضل الله، في الكتابين له خصائص النثر المفعم بالشاعرية الصريحة. لغة منسوجة من خيوط عربية أتقنت خياطتها ثوباً موشّى بألوان الأدب الفلسفي.

تنوع الإنتاج في الكتابين النصوص النثرية، والإقتباسات الشعرية، والإنتاج الشعري والرسائل إلى جانب القصائد التي نظمت في أبواب الغزل والرثاء، والمديح،

والمناسبات، والإخوانيات والشعر الصوفي العرفاني (شعر التجليات، والعشق الإلهي، وحب الولاية) كطريق إلى حب الذات الإلهية المعشوق الأول والأزلي.

إنه حديقة عامرة بالورد الجميل والثمار الطيبة وإذا أردت المتعة والفائدة ذهبت إلى التأمل والقطاف، لكن يلزمك الوقت والبحث عن الدر المنثور في بستان الجمال.

وإذا كان هذا الأمر يستلزم اشتغالاً وافياً، فإن حدود المقالة في هذا المؤتمر تحمل على الإقتصار في تبيان الأبعاد الفلسفية والعرفانية للسمكيّة على وجه الإجمال، وفي قصائد مختارة من المجموعة القصائد والرسائل ومنها:

كمال التجلي (في العرفان) ص١٥٩.

واضح النهج (غزل عرفاني) ص٢٣٦.

المهدي عجل الله فرجه الشريف، وأعقبها بشرح نظري في كتابه (الإمامة).

البعد الفلسفي والعرفاني في السمكيّة:

السمكيّة، رسالة في النفس الإنسانية. وحكاية رحلتها مع قواها، وسيرها وسلوكها من مبدأها إلى معادها، والسمكيّة رواية تفصح عن فلسفتها في لغة تجمع الشعر والحكاية والأمثال، إلى جانب القرآن والحديث وخبرة الحكماء وتجربة الأولياء. وإذا وضعناها في ميزان الإنتاج الأدبي الفلسفي وجدنا أنها قريبة من القصص الأدبي، وأدب الرحلات الميتافيزيقية التي تدور في عالم النفس.

وكذلك ما اعتمده فلاسفة الإشراق من أسلوب القرآن في التعلم من ضرب الأمثلة للناس.

ليس السيد محمد رضا فضل الله في الرسالة عرفانياً من أهل الإشراق، ولا من مدرسة تصوف التجليات بل يندرج في تصوّف المعاملات، قريب فيها من مدرستين شهيرتين التصوف المعاملاتي للغزالي، والتصوّف العقلي للشيخ الرئيس إبن سينا.

تقسيم قوى النفس عنده أرسطيّ سينوي، النفس النباتية والحيوانية، والناطقة،

وقوى النفس: ١) الشهوانيّة ٢) والغضبيّة، والعاقلة (الحكمة)، لكن مشرب السيد في السمكيّة يذهب إلى أبعد من هذا. يشرح في الرسالة أبعاد ومراحل الصراع بين الشيطان والإنسان وأدوار النفس الإنسانية في هذا الصراع من: النفس الأمارة، إلى اللوّامة، إلى المطمئنة ويجعل الصراع بين جنود العقل وجنود الجهل ثم يشبك كل هذا المسرح في أحوال النفس ومصائرها بإفصاح أدبي متنوع فيه من كل بستان زهرة أو ثمرة.

يلفتنا في الرسالة أنها بدأت من حكاية (حفلة السمك) واتفاق الأصحاب على تحضير مائدتها، في يوم له أبعاد رمزية بدوره، هو يوم الخميس، ويسرق لصوص السمك طعام الصحبة كما يسرق الشيطان جهد الإنسان في السفر إلى الله سبحانه وهذه تعني في الأدب الفلسفي أن الأديب والشاعر ينطلق من رموز وحكاية ذات بعد شبه أسطوري محلي، ليبني أفكاره على ركائز متحصلة في التجربة الإنسانية لا يبدأ فيها من نقطة الصفر، والثانية أنه يقدم الحكاية مستفيداً من الأسلوب القصصي القرآني وأسلوب «ضرب الأمثال للناس».

يذكرني موضوع الشيطان وصراعه مع الإنسان، في مسرحية د. فاوست للشاعر الألماني غوته أن أشخاص مسرحية د. فاوست بشرٌ واقعيون فيما أشخاص السمكية قوى نفسية تجد مصاديقها في بشر واقعيين.. إن صراع الشيطان مع الإنسان ومسرحة النفس الإنسانية وقواها، وجنود الإنسان الفعل وجنود الشيطان الجهل مدرجة في إطار حكاية رمزية، معبرة، معطوفة على رموز أخرى منها يوم الخميس وصباحه يقول:

ذاك يوم أضاء للإنس فيه　　شعلة أخمدت شعاع الشموس
وبه للسرور بدر عليّ　　شق للهمِّ ظلمة الحندليس

في هذه القصيدة استخدم لغة النور وهي (لغة عرفانية بامتياز) إشراقية لكشف محاسن يوم الخميس ثم يعقبها برمز الخمرة ولغة الشعر الخمري لبيان بهجته ولذته، فالندامى تحتسي صافي الكؤوس مثل العقيق في الخمر (الخندريس). لنخلص أن

الخميس وصباحه أنوار في ظلمة الزمان (النور والظلمة)، هذا قاموس الشعر الصوفي الصريح واستخدام أصرح لرموزه.

كان السيد قد أخبرنا في مقدمة الرسالة أنه يبحث في أصالة اللذة عند النفس الإنسانية أو اعتباريتها، وهو لعمري بحث فلسفي عالي القيمة، وقبلها كان يقدّم النفس كما هي عليه في مفاهيم أحوالها عند كل من:

المتشرعة

أهل الفلسفة والصوفية من المتشرعة.

وهذا تقسيم جديد لم يأت غيره على صريحة عبارته، كان التقسيم يقوم بين الفقهاء من أهل الظاهر، والعرفاء من أهل الباطن، لكن السيد بنوع من المشرب الصوفي والعرفاني في الفقه (المتشرعة).

ثمة متشرعة محض وحسب وأهل التصوّف والعرفاء من المتشرعة، وهو يشير بشكل صريح لا لبس فيه أنه واحد منهم.

لن أقف عند منهجية السيد فضل الله في صياغة الإشكالية في أسئلة تجعلها منهجية فلسفية بامتياز مقولة: هل هناك أدلة واضحة وحجج معتمدة تقضي برجحان التلبس في لذات الدنيا أم لا؟ وهذا قريب من منهجيّة إبن رشد؛ في محاكمة الفقيه لموضوعات الفلسفة في فصل المقال.

ثم يرتفع إلى الأدب الفلسفي ص(٣٩)، أن الغرض من ذكر السمكية مجرد مثال للمقصود للمطلوب، وقديماً كانت الحكمة أمثالاً تضرب وسيراً تقص واقتفت الحكماء ذلك.

طريق الحكماء، طريق المثل والقصة والسيرة والرواية، وهي أشكال وأنواع أدبية بامتياز صالحة للكشف عن أسرار الحكمة.

سأحاول أن أشير بإيجاز إلى الأبعاد الفلسفية والعرفانية في شعره في السمكيّة.

- التخلي عن السوّى: وفيه أن التخلي عن ملذات الدنيا وعن ما سوى الله محصل للسعادة الروحية الحقيقية.

يبدأ رحلته في التصوّف والعرفان، بالزهد، وهو الخطوة الأولى على الطريق، عند كل العرفاء والزهد عنده انقلاب من شيء إلى آخر، زهدٌ في الدين ورغبة في الآخرة، وهو في ذلك قريب من مفهوم الزهد عند الغزالي؛ ويدعو إلى اتباع منهج الزهد الصوفي بقوله الصريح.

من كان يهواهم يدلف بنهجهم ما أخطأ القصد في نهجهم دلفا

ويقدّم للزهد تعريف لعله ينفرد به لارتباطه بمفهوم فلسفة اللذة عنده في سمكيته.

فلا تأس عما فات من كل لذّة ولا إن أي طبق المنى أنت تفرح

يعني من يتساوى عنده حصول الشيء أو حرمانه، وهو صنف من الزهد، يجعلك سيداً لنفسك عبداً لله وحده سبحانه.

إن اختياره للتصوّف لا يعني الإنقطاع عن الدنيا، ولا عن الحديث بنعمة ربه ولذلك تناول بإسهاب في نقد غير مباشر للصوفية الذين ينكفئون عن الحياة ويلجأون إلى حرمان أنفسهم من نعم الله التي لا تحصى، ولعله يشرح الأمر بطريقة إيجابية من خلال مديح الإقبال على الدنيا، إنه الزاهد الذي لا تحكمه متاع الدنيا ولكن لا يحرم نفسه منها، وتلك تستلزم تزكية نفسية عالية.

نقد زيف الصوفية الظاهري، وهذا ما كان الإمام الخميني قدس سره قد انتقده بشدة، بقوله: تحسب نفسك إبن المنصور، وأنت لم تشق في العشق طرف ثوبك.

هذا النقد للصوفية لا يتفق مع حرب الفقهاء على الصوفية لكنه تصحيح في المسلك الصوفي وما علق به من شوائب الطرق وشيوخها.

في الحديث عن أبي مرّة (وهو الشيطان) يقدمه بشكل معاصر رجلاً لكل المواقف والمناسبات، يلبس لبوسها لينفذ إلى غاياته.. كان شيطان فاوست قد ظلم على شكل كلب أو خنزير وعندما اجتاز عتبة النجمة السداسية يتحوّل إلى رجلٍ يفاوض فاوست على توقيع العقد بينهما، كان شيطان فاوست يمنيه بالشباب والخلود والسلطة والمال والنساء، وهي عناصر تتجمَّع في أحوال قوى النفس، التي يتوجه إليها إبن مرّة في

السمكيّة، إن إبن مرّة يخاطب القوى الغضبيّة والشهوية الحيوانية والنباتيّة، ويعمل على إضعاف القوى العقلية والحكميّة الفاضلة، وهو يستخدم جنود الجهل للوصول إلى غايته، إنه يخرب النفس الإنسانية ويوسوس لقواها ويقودها، تسانده النفس الأمارة عن يمينه والنفس اللوّامة عن شماله والحسية الحيوانية بين يديه والنباتية النامية من خلفه ويكون مركز الدائرة في إدارة هذه النفوس وتوجيه قواها.

في هذا المحل كان شيطان فاوست قادراً على السيطرة على روح إنسان وليس روح الإنسان Un home et pas l'home لأن الصراع في د. فاوست عند غوته يبدأ بالرهان في السماء ويجري في العالم الأرضيّ، الصراع بين الشيطان والإنسان في السمكية يقوم داخل النفس الإنسانية، في عالم النفس تحيط بها أسباب الشقاوة وأسباب السعادة، وعليه فإذا كان غوته يريد، على ما ذهب النقاد من دارسيه، إلى محاكمة العقل الأوروبي، فإن السيد فضل الله يريد تنبيه النفس الإنسانية وقيادتها إلى خلاصها في الدارين: الدنيا والآخرة، ولذلك فإن الشيطان غير قادر على تدمير النفس الإنسانية والسيطرة عليها، بل تحمل هذه النفس كل أسباب خلاصها وسعادتها.

وإذا كانت الحياة المديدة، والشباب، والسلطة، والمال والنساء وهي ابتلاءات عصر غوته جنود الشيطان مفستوفيكس فإن جنود إبن مرّة من عالم النفس بتعبير فلسفي: المائز بين الإثنين أن الصراع يدور في فاوست في العالم الأكبر (العالم الإنساني، الإجتماع الإنساني) فيما الصراع يدور عند فضل الله في العالم الأصغر (النفس الإنسانية).

أتحسب أنك جرم صغير وبك انطوى العالم الأكبر

من الصعب متابعة الأبعاد الفلسفية والعرفانية للسمكية في مقالة واحدة، لأنها نص كثيف المبنى والمعنى.

استطاع الكاتب فيه أن يجمع سعة الرؤيا في ضيق العبارة وكل عملية تحليلية أو تفكيكية، للنص أو كل شرح وتعليق عليه يحتاج إلى سعة وتدبير.

أقول: أن مصير الصراع بين الشيطان إبن مرّة والإنسان، لصالح الإنسان الذي يغلب عنده جنود العقل على جنود الجهل، وتتمتع النفس المطمئنة بما أورده السيد فضل الله في نص للشهيد الثاني في غاية الروعة يكشف عن تراث عرفاني عاملي: وتتسلسل مراحل الطريق من الشوق والذوق إلى الدخول في الطريقة بعد صبر وشكر وزهد وتصفية للروح، وسرّ الفقر والذكر والتلاوة والخضوع والتذلل والوقوف على عرفه والدخول في الطريقة، لتختم في خمرية عرفانية فيها:

فإن سقاك مدير الراح من يده كأس التجلي فخذ بالكأس واغترف
واشرب واسقي ولا تبخل على ظمأ وإن رجعت بلا ريّ فوا أسفي

شرح السيد فضل الله أحوال السعادة بعدما شرح لمرة ثانية قوى النفس وفق المذهب الأرسطي السينوي وتعبيراً عن انتصار النفس الإنسانية على إبن مرّة (الشيطان)، يشرح خطة هجوم الشيطان وحنقه وانهزامه، وكان قد سبقها شرح الخطاب ويبدأ:

خطاب القنوع.

خطاب العفه.

خطاب الزهد.

خطاب التقوى.

تذكرنا مسألة الخطاب بمنطق الطير للعطار، وتعاقب الطيور على الخطاب والكلام قبل الرحلة، وفي رواية لي، الجزء الثاني من قمة الرجال العشرة، أترك رجال الرحلة يقدم كل واحد منهم خطابه، لكن الخطبة عند السيد لقوى النفس والمعاني، وليست للطير وهو رمز للنفس، أو للرجال وهم قادة القافلة، لمعة لعلها تتفق مع المعنى المجرد في الفقه الصوري عند بعض العلماء أبى محاكمة القول على القول بالقول وهذه أفلاطونية صريحة إلى جانب إتفاقها مع الفضائل الشهيرة في النظرية الأرسطية القائمة على الوسطية أو التوسط ما بين حدي الإفراط والتفريط.

أختم، بذكر ما وجدته تلاقياً مع أبو العلاء المعري في كتابه رسالة الغفران ومع

الكوميديا الإلهية لـ«دانته» مع وجود أصول مشتركة، مرتبطة بوصف الجنة والنار في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف وتراث الأدب الإسلامي، ومع اختلاف مقاربات كل من الكتب المذكورة وأساليبها، لكنها تشترك من ناحية النوع باعتبارها جزء من الأدب الفلسفي إن دراسة أبواب النار و أبواب الجحيم معطوفة على فئات الناس وكأن لكل باب دخوله كما يحمل كل إنسان كتابه بيمينه وفيها مراتب درجات أسفار النفس التي يسلكها الصابرون والصادقون والمقرَّبون وأصحاب اليمين والأبرار إن دراسة المقارنة في هذا الموضع في غاية المتعة والفائدة الفلسفية والأدبية.

كان من المقرر أن أدرس الأبعاد العرفانية في شعره، وهذا ما سأكمله في بحث مستقل لأن المقالة لا تتسع له. ولأنني وقعت فيه على درر مخبأة..

أقول: إن العلامة الفقيه السيد محمد رضا فضل الله، عالماً فقيهاً شاعراً عارفاً وقد أحسنت دار البلاغة وأهله على نشر مؤلفاته وأنصح أهل العلم وخاصة طلاب الفلسفة والأدب بدراستها والغوص إلى بحرها الزاخر لأنهم سيجدون فيها كل ما يليق بالبحث والمعرفة والمتعة والفائدة.

إن مدرسة جبل عامل (وهي رمز للمدرسة الفكرية الشيعية في بلاد الشام) تتكشَّف كل يوم عن عالم شاعر عارف وفقيه مجتهد.

رعى الله حوزتنا وعلمائنا

وسدّد الخطى في نشر إنتاجهم

والعناية به حق العناية

رحم الله السيد محمد رضا فضل الله.

أ.د سالم المعوش[1]

«ميزان العدل «السمكية»[2]

رحلة إلى الداخل في محاولة سردية

- الإنتماء الصوغي لـ«ميزان العدل»:

ميزان العدل «السمكية» أثر يعود إلى النهضة العربية المنشغلة بإعادة بناء المجتمع العربي في القرن التاسع عشر، مرتكزاً على أمرين رئيسين: التراث العربي والإسلامي من جهة، وإستلهام تجارب الغرب وعلومه ومبتكراته لتوظيفها في تلك النهضة.

وقد عمد الروّاد العرب إلى تقديم آرائهم ومقترحاتهم في سبيل هذا النهوض، وإعتمد بعضهم على الأشكال الأدبية لإيصال تقديماتهم إلى الناس، في قوالب يستسيغونها وتساعد على تقريب المقصود من المفهوم الشعبي، وكان القصّ والرحلة وسيلتين معتمدتين لبلوغ هذا الهدف البنائي: السياسي والإجتماعي والإقتصادي والتربوي والتعليمي والعمراني والأخلاقي...

وإذا كان البعض أمثال الطهطاوي وعلي مبارك وسليم البستاني ومحمد المويلحي وفرنسيس مراش وأحمد فارس الشدياق وخير الدين التونسي.. قد إعتمدوا الرحلة إلى

(١) أستاذ الدراسات العليا في الجامعة اللبنانية

(٢) ميزان العدل: السمكية للعلامة الفقيه السيد محمد رضا فضل الله، دار البلاغة بيروت ٢٠١٣.

الخارج لتقديم المعارف والعلوم والآداب والفلسفات وغيرها من مقومات النهوض، فإن آخرين قد إعتمدوا الرحلة إلى الداخل، داخل بلاد العرب لتقديم المعارف العربية والإسلامية، ومن هؤلاء العلامة الفقيه السيد محمد رضا فضل اللّه في مجموعة كتبه وجرجي زيدان في مجموعة رواياته التاريخية العربية، وشكيب إرسلان ومعروف الأرناؤوط وسواهم كثير.

ومن يعد إلى إصدارات القرن التاسع عشر يجدها شديدة التنوع إلى الحد الذي ملأ فراغات كثيرة في الثقافة العربية آنذاك، وهي إصدارات في العلم والمعرفة والدين والسياسة والإقتصاد والإجتماع والفلسفة ... إصدارات طغت عليها النزعة الإصلاحية، وتناوب عليها التأليف والترجمة وإعادة الصوغ، الأمر الذي جعلها تغطي معظم الميادين التي يحتاجها البناء الإجتماعي.

وكان الدين والتمسك بما لدى العرب مسألة رئيسية، بالإضافة إلى الحفاظ على اللغة العربية وتطويرها وتطويعها من طريق الصحافة والدربة وإختيار الأساليب التعبيرية الملائمة.

وبالمقابل كانت الدعوة إلى الإنغماس بالغرب وما لديه شديدة، في زمن كانت تحتاج النهضة إليه، وقد تحولت الثقافة العربية إلى ميدان واسع تصب فيه التيارات الفكرية والعلمية والتربوية، ولقد ظهرت في ميدان اللغة، إختبارات تراوحت بين المحافظة على القديم وبين التجديد المعتمد على الحياة العصرية والمستجدات الأسلوبية التي إعتمدت على الواقع التعبيري الجديد في حياة العرب، وصوغهم النهضة على أسس عصرية..

ولقد تميّزت المدرسة البيانية من بين هذه الإختيارات والإتجاهات، فحاولت الإرتكاز على نظرية البيان العربية عند السلف، ولم تفتها الإستفادة من الجديد في الأساليب، والذي يطمح إلى التعبير بنثرٍ ملائم متحلل من كثير من القيود اللغوية القديمة.

ولعلّنا لا نخطىء إذا حددنا إنتماء السيد فضل الله الأسلوبي إلى هذه المدرسة

البيانية التي كان من أعلامها مصطفى المنفلوطي والأمير شكيب إرسلان وغيرهما كثير... وهؤلاء جميعهم متعاصرون، ومن رواد الكتابة العربية الرفيعة والأنيقة والمحافظة على الأسلوب البياني من دون أن تحرمه مستجدّات العصر، وقد عبّر السيد فضل الله عن هذا الإنتماء البياني في الغرض من كتابة رسالته (السمكية) بأن «الكلام فيه تزيين من ضروب البلاغة ما تخرس الأقلام عن نعته، وتستعجم العبائر عن وصفه، مع كمال الإيضاح عن حقيقة مقصده وتمام الكشف عمّا هو بصدده..»[1].

وكان من الطبيعي أن ينشأ صراع بين الداعين إلى النهضة حول الطرق والأفكار والأساليب التي من شأنها أن تقيم صرح هذا البناء النهضوي على غير صعيد، وقد وصل هذا الصراع إلى الحد الذي أبرز مجموعة من المواقف أبرزها:

- المحافظة على ما لدى العرب بقوة من دون الإلتفات إلى سواهم.
- الأخذ الكلي عن الغرب، في حسبان أن ما لدى العرب غير نافع لبناء المجتمع الجديد.
- الموقف المعتدل الذي يرى أن ما لدى العرب غير كاف لهذا البناء. وما يمكن أخذه من الغرب يكمل النقص، شرط ألا يتعارض مع الموروث والواقع العربيين.

وكما أن الأوضاع العربية والعالمية الراهنة في حالة مميزة يمر بها العالم لإعادة بنائه، كذلك كانت أوضاعه في تلك المراحل من النهضة يسودها القلق من كل ما يجري في خريطة العالم، خصوصاً بلاد العرب، حيث أصبح الإنفتاح على الآخرين يحتاج إلى ضوابط تعقله وتوجهه التوجيه الصحيح.

صحيح أن العلم والمعرفة والفكر والثقافة... عوامل ضرورية في البناء، إلا أنها قد تدمر العالم إن لم يكن هناك رادع أخلاقي يردعه ويوظف المعارف في خدمة الإنسانية.

في ضوء ذلك كله ينبغي إعادة قراءة «ميزان العدل» للسيد فضل الله، وهو كتاب لا يخرج عن مسار السلسلة الطويلة من الإصدارات التي أسّست للتربية والتعلم، وارتكزت على الأخلاق الدينية التي كان المجتمع بحاجة ماسة إليها لضبط الإنفلات على غير

(١) السمكية ص ٢١٧

صعيد، خصوصاً الفكرة القائلة: إن العلوم والمعارف والمبتكرات والحضارات... لا تفيد من دون أخلاق خوفاً من توجهها بإتجاه الشر.

إذاً هو كتاب يملأ هذا الفراغ، وميزته عن المؤلفات التي وضعت في عصر النهضة، بأن هذا الجانب الأخلاقي كان موجوداً، لكنه قلما أفردت له تآليف تقتصر عليه منفرداً.

- هوية الكتاب:

و«ميزان العدل» أو «السمكية» يعتمد على الحكاية في مجمله، ويجعل بنيته تقوم على القصّ الذي تصرف به مؤلفه بما يلائم مقصده.

وعلى الرغم من ترداد لفظة «رسالة» في متن الكتاب غير مرة، مثل قوله: «ولما كانت الغاية القصوى والغرض المهم من هذه الرسالة أنه هل هناك أدلة واضحة وحجج معتمدة تقضي برجحان التلبس في لذات الدنيا على تركها أم لا؟»[١]، وقوله: «والغرض من إيراد هذا الكلام، وبديع هذا القول، تزيين هذه الرسالة به....»[٢].

على الرغم من ذلك كله، أي أن الكاتب يحسب كتابه «رسالة»، فإن مسالك أخرى يتبعها، وفي ظنه، كما يقول إنه إعتمد القص طريقة لأن «النفس لإستماع السير والأمثال أرغب وإلى الوقوف عليها أحب، وفي ذلك لهو للعامة وتذكرة لأولي الألباب، والله الهادي إلى منهج الصواب»[٣].

وفي ذلك يكون السيد فضل الله قد إقتفى أثر القرآن الكريم في عرض الأمثال والقصص «أمثالاً تضرب وسيراً تقص»[٤]، ومن ثم الإنصراف إلى الحكم والمواعظ والشروح المستفيضة حول قضاياتهم الإنسان في مجمل حياته: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[٥].

(١) ميزان العدل: السميكة- ص٣٩.
(٢) (م.ن) ص٢١٧.
(٣) (م.ن) ص ٤٠.
(٤) (م.ن) ص ٤٠.
(٥) سورة يوسف الآية: ٣.

بالإضافة إلى مسرحة بعض المشاهد والحوادث، وإضفاء الخيال على ما يذهب إليه، حيث يبدو كتابه خليطاً من القص الحكائي والمسرحي والخطابي والمفارقات الموزعة على الخير والشر من جهة، وتجويد أساليب اللغة إلى حد الفصاحة العليا من جهة ثانية.

ويبدو للدارس أن صاحب الكتاب قد مال بصوغه بإتجاه قصص الرومانس المليء باستعمال الخيال والمبالغة، وإهالة أقباس الروح على العمل حتى إقترب من الخيال العلمي في مكان والروحي في مكان آخر، ويمكن تناول الكتاب على أنه رسالة مصوغة على هذا الأساس القصصي الذي يهدف إلى الوعظ والإرشاد الديني، والتوجيه الأخلاقي والتربوي والتعليمي.

تماثل الأنماط:

إن المطلع على فكر النهضة وأدبها سيجد مثيلاً لعمل السيد فضل الله، حيث كان الهدف التعليم والتوجيه، وقد كتب رفاعة الطهطاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريس» على هذا الأساس، وكان كتابه قد سمي تجوزاً رواية لضعف العنصر الروائي فيه، وكذلك فعل المفكّر المصري علي مبارك في روايته «علم الدين»، عندما قام برحلتين متعاكستين: واحدة إلى الشرق وأخرى إلى الغرب، وقد أعلن في مقدّمة الرواية كما أعلن السيد فضل الله في مستهل «ميزان العدل»، بقول قريب «لقد رأيت النفوس كثيراً ما تميل إلى السّيَر والقصص وملح الكلام..». فحداني هذا عمل كتاب أضمنه كثيراً من الفوائد في أسلوب حكاية لطيف «ينشط الناظر إلى مطالعتها»[1].

وكذلك فعل محمد المويلحي في روايته «عيسى بن هشام»، معتمداً أيضاً على الخيال الأسطوري في إخراج أحد الباشوات من القبر، وقد مضى على موته ثلاثمائة سنة،

(١) رواية «علم الدين» علي مبارك ضمن المجموعة الكاملة لأعمال علي مبارك ص ١٢٦ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) القاهرة ١٨٨٣.

ليقوما برحلتين: واحدة إلى أرجاء مصر، وأخرى إلى إنكلترا، وليكون تفصيل الرواية قائماً على المقارنة بين الماضي والحاضر أولاً، وبين الشرق والغرب ثانياً، في قالب إستكشافي حواري هدفه التعليم والمعرفة والإستكشاف.

ولعل رواية فرنسيس مرّاش[1]، (١٨٣٦-١٨٧٣)، «غابة الحق» تكون المثيل الأقرب لعمل السيد فضل الله، فقد جعل المرّاش الحلم بنية روايته، حيث يحلم في غفلة منه، فيتخيّل أنّه يطوف الدنيا منذ البدء، وحيث كان العمران يغشاها إلى أن أصبحت دولاً متنازعة ومتصارعة تتقاتل ويغلب القوي الضعيف ويسود بعسفه على الأرض قاطبة، وخلال تطوافه يتخيل باباً رحباً ينفتح لبصيرته، قرأ على قنطرته «والعقل يحكم»، وراءه فسحة واسعة عبارة عن برّية، ثم يمضي ليلوح له على أحد البيارق كتابة قرأها: «العلم يغلب»، ووراءه تنبسط جيوش من التمدن الزاهر تمتطي متون الإختراعات العجيبة والمعارف الكاملة، تخطر متموجة بأنوار أسلحة الحكمة والعدل، متدرّعة بدروع الحرية الإنسانية... ويلمح ممالك الظلام تندحر أمام الحكمة والعدل والحرية، حيث يسيطر العدل وينتشر السلام في الكون، ثم يبصر عرشين قرب صخرة ينسل منها غدير، كتب على العرش الأول: «يعيش ملك الحرية»، وعلى العرش الثاني جلست إمرأة كتب على إكليلها الذهبي سطر من أحرف نارية «تحيا ملكة الحكمة»، ويظهر ملك الحرية غاضباً يحاول تحطيم مملكة العبودية، فيتسنَّى له ذلك، لينصرف المرّاش بعد ذلك إلى التغني بنتائج السلام من عمران ومعارف، وليبين مساوىء الحرب من تدمير وهلاك، فيرجح لديه الإنتقام من ملوك الشرّ، فيأتي بفيلسوفه القاضي في «مدينة النور»، فيبسط آراءه العظيمة فيقنع الملك بإقامة العدل، فينصرف عن إنتقامه من «مملكة الروع»[2].

(١) «غابة الحق» (فرنسيس مرّاش)»المكتبة العمومية» حلب ١٩٦١.

(٢) أنظر تفصيل ذلك في كتاب «صورة الغرب في الرواية العربية» - للدكتور سالم المعوش - ص ٢٢٠ وما بعدها- مؤسسة الرحاب الحديثة- بيروت- ١٩٨٠.

تقترب بنية «ميزان العدل «من بنية»، «غابة الحق» في قيامهما على التخيّل، واستعمال الكلمات المفاتيح في العملين (العقل والحكمة والنور والظلام والظلم والعبودية والشرّ، والجنود، والعلم والجهل والسعادة والقنوع والأبواب والقناطر والحق والأتباع...) .

وتختلفان في الرحلة، فالمرّاش أقام رحلته إلى فرنسا، أي إلى الخارج، وتعرّف على دساتيرها وقوانينها وعاداتها.. خصوصاً تعاليم الثورة الفرنسية (١٧٨٩)، أما السيد فضل الله فقد أقام رحلته إلى الداخل، وهو هنا داخلان: داخل التراث الديني وداخل النفس الإنسانية بما فيها من نوازع وميول ورغبات في حالتيّ الإيجاب والسلب.

والعملان يستعملان تقنية حشد الجيوش للمعارك الوهمية، حيث تبرز ميّزة الصراع بشكل جليّ دلالاته على الضدّية السائدة في معترك الحياة بين قوى الشرّ وقيم الخير، والمنقسمين إلى معسكرين عنيفي التفاعل.

- «ميزان العدل»: السمكية:

- دلالة العنوان:

ثلاث مفردات، تلخص مجمل ما جاء في الكتاب، والمقصود هو «العدل» وإقامته، ولن يتسنى ذلك إلا بوزن الأمور بميزان خاص إتفق على تسميته بـ «ميزان العدل»، وهو الرسم المرفوع على أبواب المحاكم إشارة إلى أنه: هنا يتحقق العدل.

والسمكية: من السمك، المخلوق المائي الذي يستعمل طعاماً للناس، والياء للنسبة، والدلالة هي أن ما ينوى الحديث عنه هو شيء ينسب إلى السمك، وتفسير ميزان العدل بالسميكة يعني أنّ هناك ترابطاً بين التعبيرين.

وقد توضح العبارة التي تفصل بينهما بعض العلاقة: ميزان العدل، في المحاكمة بين جنود العقل والجهل، فثمة فريقان متضادان: العقل والجهل «ولكل منهما جنود مجنّدون للإنتصار لهما، لكنّ الحصيلة تلخص بلفظة «السمكية»، التي تبتعد في مدلولها من العنوان الطويل، من دون أن يوحي إستعمالها بعلاقة ما بينهما، ومن دون أن يوضع حرف العطف الإستبدالي «أو»، لكنّ الإنطباع العام يدلّ على أنّ صاحب القصة سوف

يتحدّث عن العدل هدفاً رئيساً له، وكان على القارىء أن ينتظر للتعرّف على فكرة القصة كي يتضح مرمى العنوان.

- فكرة القصة:

لم السمكية إذاً؟

تغدو لفظة السمكية سبباً رئيسياً لتأليف الكتاب، ومن هذا السبب ينطلق الحكي مسوغاً للكاتب أن يضع حكايته، ويجعل بنيتها الأساسية تدور حول وعظ تأتّى من نتيجة فعل مؤذٍ قام به البعض، ومفاده أن مجموعة من الصحاب إتفقت على أن يكون غداؤها سمكاً على نهر دجلة، فيتم شراء السمك وإعداده للطعام، إلا أن مجموعة أخرى من الصحاب ممن عرفت بالأمر أخفت السمك وحرمت المجموعة الأولى من أطايبه.

وقد أثّرت هذه الحادثة في الكاتب، وأحبّ أن يترجم «هذه الواقعة بأنثار فائقة وأشعار رائقة، لما إشتملت عليه من خيبة الظنّ وكذب الأمل، والغرض ما وراء ألفاظها من المعنى، وما هو جدير أن يقصد ويعنى، من أنّه كم يكدح المرء في جمع شيئه ووزره عليه ومهنئوه لغيره، يتنعَّم به من لم تسع أقدامه في مذاهب طلبه»[1].

وهي حالة متفاقمة في المجتمع، حيث يعيش كثيرون على حساب الآخرين، فيسلبون أتعابهم وينسبونها إلى أنفسهم، وهو موضوع نجده مستشرياً بين الناس، فيعم الإستغلال، ونهب الثروات ومضغ لحوم الأخرين.

ولعلّ الكاتب قد إرتفع في تناوله هذا الموضوع إلى مستوى راقٍ يلمّ فيه شتات المحامد والشرور الرائدة في زمنه وأيّ زمن آخر، لينبّه إلى مخاطر الزلل ويظهر تأثيرها في السلوك الإنساني، إن لم تجد ضوابط تعقلها، وهذا الكلام حاجة كونية ماسّة، وهو ما ينطبق على زمن الكاتب إبّان الحكم التركي في مرحلته الأخيرة حيث كان أفوله سبباً في إستشراء الفساد واللصوصية والرشوة، كما كان سبباً في تكالب بعض الدول الغربية وتسابقها للإستيلاء على الشرق ونهب ثرواته.

(١) ميزان العدل ..... - ص ٣٥.

وبناء على ذلك يمضي السيد فضل الله في مخيّله السردي في خليط من النثر والشعر له ولسواه منصرفاً عن السمك، إلا في بعض المواضع، مقيماً حبكته على جوانب صراعية في نفس الإنسان وسلوكه، فيكون لهذا الصراع أطراف متقاتلة ووقعات عديدة عناصرها الرئيسة أنواع النفس: من أمّارة بالسوء، إلى مطمئنة، جاعلاً لكلّ منهما جنوداً تحشد في القتال، جنوداً موزعة على العقل والجهل والخير والشرّ، والشيطان العدوّ، والإيمان الحامي الإنسان من الزلل، وموصله إلى برّ الأمان: الجنّة وما يوعد المؤمنون به، في أحاديث مطوّلة، عن الجسد والشهوات والقنوع والعفة والزهد والتقوى والعلم، وصولاً إلى الحديث عن مصير كل واحدة منها، وبالتالي مصير الإنسان وطريقه إلى الآخرة: أهو في الجنة أم في النار نتيجة لأعماله؟

ويبدو للقارىء أنّ هذا الأثر هو نوع من القصص الذي يستقى منابعه من القرآن الكريم بهدف الوعظ الديني: يبدأ بعرض أحوال الدنيا وما أفاض به الله من طيبات وما حدّده من ممنوعات، ليصل إلى أنّ الإنسان ينحرف عن الطيب ويلجأ إلى الخبيث، وعن العقل إلى الجهل، وعن الإيمان إلى العصيان، في شبه عرض مفصّل: حكمي وعظي في مجمل وقائعه قائم على الصراع بين الميول والرغبات، تلك الصادرة عن أنواع النفس الإنسانية، لا سيما الأمارة بالسوء من جهة والمطمئنة من جهة ثانية، ليصل إلى بعض الحلول الكامنة في التعاليم الدينية والتوجيهات الصائبة من خلال تبيان الإيجابيات للملتزم والسلبيات للعاصي.

- بنية الحكاية:
- البنية الكلية:

تقوم الحكاية إذاً على فكرة سرقة السمك ومصير السارق وعلى أنّ السرقة من مفاعيل الجهل الذي يقابله العلم والعقل الضابطين الرئيسين سلوك الناس في ضوء التعاليم الدينية التي تتعمّق في أحوال الناس وما فيها من ميول ونوازع وإنحرافات وإستقامات...

- البنى الجزئية:

وتندرج في سياق البنية الكلية بنى أخرى جزئية تشكّل مفاصل رئيسية في السياق العام، وأكثر هذه البنى أهمية:

- المقدمة التي تسوّغ السبب لكتابة الحكاية، وهي عقد العزم على تناول السمك غداءً، ومن ثم سرقة السمك.

- المفصل الأول: وفيه عودة إلى سبب السرقة وهو الجهل، يتضمن هذا المفصل حديثاً مطولاً عن الجهل الذي مردّه في هذه الحكاية إلى فساد النفوس إستجابةً لرغبة الجسد في الشهوات، حيث يتبدّى أنه ينبني على لوازم ينبغي مراعاتها في حدود الحاجة والإكتفاء من غير إضطرار إلى اللجوء إلى العادات المقيتة التي يجب تجنبها، ومنها السرقة، وذلك لا يكون إلّا في نطاق خداع النفس والتزيين لها بأن الحرام يصبح حلالاً، والسعادة الآنية زيف إن قامت على فعل السوء. وذلك كلّه من منتجات النفس الأمّارة بالسوء التي تقوم على الشهوات الحسّية الحيوانية، والتي يمكن الإستغناء عنها أو تنظيمها ليكون أداؤها أفضل ضمن العقل والمنطق، وما عمل الأمارة بالسوء إلّا من خداع الشيطان الذي يرمز إليه الكاتب «بأبي مرة»، وهو أحد قطبي الصراع في الحكاية، وقائد جنود الجهل، وموصلها إلى الطمع والشهوة والشّدة والمفاسد والآثام والشرور[1].

- المفصل الثاني: وفيه تحذير من أنّ جنود الجهل لا تتصرّف بحرّية تامة، بل إن هناك نقيضاً أساسياً لها يقيّدها ويضبط أعمالها ويمنعها من التمادي في أعمالها السيئة، وقد رمز إليه الكاتب «بالعقل» الذي بدوره له جنود مجنّدة ومحصّنة ومدعومة من قبل الله عزّ وجلّ.

والفكرة الرئيسية هنا هي الإنطلاق من العقل الإنفعالي الذي يجعل النفس المطمئنة

(١) السّمكية، ص (٣٧ - ٨٢).

قوامه الرئيس، تلك النفس المنوط بها عقل الإنحراف ومنعه، ولها أدواتها المرجعية الروحية في ذلك، وهي لا تُصدِر إلا فعلاً نبيلاً يسوّر الإنسان ويقوده إلى السعادة الحقيقية الأبدية في رحاب الله، لذلك فهي تقود الفكر والنوازع إلى الخير، يؤازرها العقل بقواه الصارمة التي لا تتأخّر في المواجهة لتحقّ الحق، لذلك تجري المعارك بين جنود العقل وجنود الجهل، وينبري «أبو مرّة» (الشيطان) لملاقاة خصمه، وينكشف المشهد عن إنتصار العقل المعتمد على أمرين أساسيين.

- الأمر الأول: على بنية النفس المطمئنة المستعينة دائماً بالله، فيمدّها بروح القدس وينصرها ويضيء لها مصابيح الحكمة، وما ذلك إلّا لأنّ المطمئنة مجبولة بجملة من المكوّنات التي هدفها فعل الصواب وصلاح العالم، فتبرز هذه المكوّنات من النور والمواعظ والطاعة والتعالي عن الشهوات والمساوىء والإيمان العميق الواثق بالله، والإبتعاد من الإغترار بالنفس، والتفكير بمصير الإنسان، لا سيما جسده الذي هو إلى الزوال ... لذلك هي منتصرة دائماً على «داء الجهل»، وعالمة «بمصير أحوال الأمم والقادة الغابرين ونتائج أعمالهم البائرة»، وأنّ مصير الجميع إلى القبور، وأنّ النفس الأمّارة تلقى المصير نفسه ... لذلك يدفع الكاتب بالعقل إلى الواجهة ويجعله دائماً منتصراً.

في هذا الأمر يعطي الكاتب النفس المطمئنة الإمكانات الواسعة والمطلقة، ويمنحها منبراً خاصاً متمكناً من الثقافة الدينية الإسلامية، حيث يصبح العدل والحق والهدي وروح القدس والأمثال والقبر والطوايا الحسنة أسلحة ماضية في تتفيه آراء ومواقف النفس الأمّارة بالسوء، تلك التي تأتمر بأوامر أبي مرّة، فتحيد عن الصواب وتعصي الرحمن، فهي لذلك تصاب بالخيبة والإخفاق، وتتعرّض للتقريع والتأنيب والهزيمة، وخسارة السعادة الأبدية التي جعل الكاتب خطابها تفسيرياً لحقيقة الوجود الإنساني. ويتجلى ذلك بقوله:

«الحمد لله الذي عدل بين خلقه وساوى بين عباده، فجعل الدنيا جنّة نضرة لمن

كفر به، وخميلة عطرة لمن عَنَدَ عن طاعته، وبهجة مونقة لمن أشرك بربوبيته، يتقلبون في نعيمها، ويبتهجون في زخارفها، ويعجبون بمناظرها، ويزدهون بزبرجدها، مشغوفة أنفسهم بلذاتها، ومقصورة أبصارها على طيّباتها، يأكلون ويتمتعون، ويلهيهم الأمل الكاذب، والغرور الحائل، كالنّعم المهملة والإبل الساهمة، ولو شاء الله لزادهم فيها بسطة...».

- والأمر الثاني: هو إسهابه في الحديث عن الدار الآخرة، على لسان النفس المطمئنة، وهي التي تحذر من نتائج أعمال أهل العصيان، وأنّ عذاب القبر ينتظرهم، وأبواب النار تفتح أشداقها لتبتلعهم، وهي أشداق تنفتح على أخرى، وهي سبعة أبواب: جهنم واللظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية[1]، وسبعة قناطر: الحساب عن الصلاة، وحساب عن الأمانة وعن صلة الرحم وبرّ الوالدين وحفظ اللسان وحفظ الجار والصدق[2].

المفصل الثالث: ويتركّز حول ردّة فعل جنود العقل الذين ينبرون للدفاع عن القيم التي ينبغي أن تكون ثابتة في الشخصية الإنسانية، في هذا المفصل عرض واثق من الإنتصار الحتمي للصحيح والباقي في إدارة الكون، يقيمه الكاتب على مدركات حسّية ومعنوية، تنتمي في مجملها إلى الأرض الخصبة التي تكتنف عالم الإنسان الباطني، وهي منطلقات تقود الإنسان في الظاهر من خلال محرّكات سلوكية قوامها: الوحدة وصراع الأضداد، فإلى جانب التكوين المتحرّك، وغير الثابت للقوى المؤقتة الناتجة عن المطامع والنوازع والميول والرغبات والإنحراف بإتجاه الشرّ والمعاصي والمآتم والشرور ... ثمة قوى أخرى أكثر ثبوتاً وديمومة، وأكثر فاعلية، وأقوى منطقاً، تقف في النقيض من القوى الأولى العابرة، وهي تشكل الأرضية الصحيحة والحقيقية التي جُبل عليها الإنسان، وفي مقدمتها يأتي العقل بأسلحته اليقينية، والتي يسميها الكاتب «جنود

(١) السمكية ص ٢٣.
(٢) السمكية ص ١٢٨.

العقل»، وهي القائمة على الإيمان الصحيح المعتمد على القنوع والعفّة والزهد والتقوى، وإذا كانت هذه الأسلحة معنوية، من متعلقات النفس المطمئنة الآيلة إلى الإستقرار الآدمي، فإنّها مسوّرة بأبنية العلم القائمة على الأدلة والبراهين الساطعة التي لا مهرب منها، إلا بالإنحراف البيّن عن جادة الصواب.

يقوم هذا المفصل إذاً على هجوم جنود العقل على جنود الجهل، في نزال مميت يؤدي إلى تبيان حقائق الأفعال ونهاياتها، حيث ينهض العلم «وسبحات أنوار الهدى تتلألأ في جبينه، وأشعة مصابيح الرشاد يشعُ من صفحات وجهه، وكواكب هممه تبزغ مزهرة من رجع لهواته، وتفيض جداولها من جوانبه، وتنطلق ألسنتها من نواحيه منحدراً في مقوله سائلاً في ترسله، راكباً من البيان ثبج لجيه، ممتطياً كواهل غواربه، ساطعاً بصبح الإيضاح، وشموس الكشف، وقد قّد سوابق منطقه، وقصّر أعنة مقوله وبنى مطالب مقاصده على نظم مقدّمات، وترتيب مقامات ببيانها ترتفع الغشاوات وتستنير الظلمات»[1].

في هذا المقطع التقديمي للعقل، تتجلي حقيقة التعبير البياني الذي يعيد السيد فضل الله في إنتمائه الأسلوبي إلى المدرسة البيانية في النثر، حيث نلاحظ العبارة المجنّحة والخيال الثرّ يهيمن على الأداء اللغوي: «سائلاً في ترسله» وراكباً من البيان ثبج لجيه في هالة من الأضواء التي تكشف منطق القول القائم على جملة من الأمور التي يرتبها الكاتب، ويحيل صدورها من ينابيع «إرادة الإبداع»، وتناقلها إلى «يد الإنشاء»، في ظل إكتناف نوراني فيه من الشفافية والأجسام الروحانية الشيء الكثير[2].

أما هذه الأضواء فجوهرها يفصح عن تنبيه العقول الساهية إلى كبرياء الله عزّ وجلّ وتوحيده وأزليته وسببية خلقه، وما وضعه في البشر من طبائع متضادة وصفات مختلفة، جعلها تنتقل بالوراثة عبر السلالة الإنسانية. ذلك كله في سلك منطقي قوامه

(١) السمكية ص ٢٠٣.

(٢) السمكية ص ٢٠٣.

البرهان العقلي على صحة النتائج الكامنة في صحة المقدمات[١]، ليصل في خلاصته إلى القول:» إن حقيقية النعيم إنما هو بالمعارف الإلهية، والذات العقلية، لا بالعلوم الجسدية واللذات الحسية»[٢]، من دون أن يغمط العلم حقّه في الإستدلال على حقيقة اللّه والوجود، في سلسلة من الشواهد التي هي من إنتاج العقل.

في المفصل الرابع:

يوحي الكاتب بأن الصراع بين الخير والشرّ سيستمر ما دام «أبو مرّة» (الشيطان) موجوداً يعيث في الأرض فساداً. فعلى الرغم من الأدلة الدامغة التي يتقدم بها العقل، وعلى الرغم من إنتصاره وقوّة الحجج العلمية التي تقدمها النفس المطمئنة ... فالصراع يجد سبيله الدائم إلى الشقاق والنفاق، والأمر بالسوء، وإغواء النفوس، والميل بها بإتجاه العصيان والمجادلة من أجل المجادلة وإستمرار النزاع.

في هذا المفصل نجد الهزيمة على لسان الشيطان، يعبّر بها الكاتب شعراً مستقى من الشاعر العباسي أبي تمام:

خطوبٌ إذا لاقيتهن رددنني جريحاً كأنّي قد لقيت كتائبا
ومن لم يُسلمٌ للنوائب أصبحت خلائقه طرا عليه نوَائبا
وقد يكون السيف المسمى منية وقد يرجع السهم المظفَّرُ خائبا
وآفه ذا ألاّ يصادف رامياً وآفةُ ذا ألاّ يصادف ضاربا[٣]

وأبرز ما في هذا المقطع هو إحتدام الجدال، في حوار صدامي تعتلي فيه الحجج لكلٍّ من جنود الجهل وجنود العقل. وقد سمّاه الكاتب بـ«الهجوم المضاد»، وهو الذي حاولت فيه النفس الأمّارة بالسوء إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أفعال إنحرافية تلصقها بالإنسان، وكأنّي بالشيطان (أبو مرّة) يتجدّد وينهض من خيبته ويؤكد مسيرته الإغوائية في عالم الناس. يقول:

(١) السمكية ص ٢٠٤.
(٢) المصدر نفسه – ص ٢٠٤.
(٣) المصدر نفسه ٢٤٣.

أنـــا أبـــو مـــرّة إن جـــدّ الـوهـل خـلـفـت غـيـر زمـــل ولا وكـل
ذو خـدعـة وذو دهـــاء وخـتـل إن ملَّـنـي الـشـرّ فـإنّـي لا أَمـــلَ[1]

وهو ما أحيا جنود الجهل ودفع بالنفس الأمّارة الى أن تعود إلى حلبة الصراع، وهكذا حتى ما لا نهاية: يقوم الصراع فتنخفق، ثم تجد بواعث جديدة، فينقضي الزمان، وهي لا تغادر النفوس ولا الأمكنة، وها هي ذي اليوم في «ميزان العدل»، تعود في «هيئة السمك» لتغوي الإنسان وتدفعه إلى السرقة وفعل الموبقات.

أمّا المفصل الخامس والأخير، فيأتي ليؤكّد حال الوجود منذ الأزل، وأنّ النهايات مآلها إلى الله عزّ وجلّ، وأنّ هذه الدنيا مليئة بالأماني الكاذبة، ولا حلّ إلا بصحوة الروح.

ذلك كلّه يأتي في شبه خاتمة للحكاية سمّاها الكاتب «العبرة»، وهي خلاصة ألآراء المتنوعة، تأتي على لسان مجموعة من الشخصيات عبر أصوات تتناوب القول، ويدلي كلٌّ منها بنوع تفكيره، كخلاصة مستفادة من التجارب العديدة التي يقوم بها أشتات الناس. هذا المفصل يبدأ بمدخل للكاتب موجهاً إلى «العصابة المنغمسة في لهوها» وهي تلك المجموعة من الصحاب التي سرقت السمك. فيكون رأي الكاتب أن أماني هذه المجموعة هي كاذبة وواهمة وغمٌّ وبلاء، وأنّ اللذات سرعان ما تزول، ولا يبقى منّها إلا الندم. والصحيح الدائم هو التمسّك بطاعة الله. وقد عبّر عن ذلك بقول الشاعر لبيد ين ربيعة العامري[2]:

ألا كـل شـيء مـا خـلا الله بـاطـل وكـــل نـعـيـم لا مـحـالـة زائـــل
ســوى جنّـة الـفـردوس إنّ نعيمها سيبقى وإنّ الموت لا شك نـازل[3]

وأتاح الفرصة لجمع الحاضرين أن يعبّروا، كلٌّ بحسب تجربته، عن حال الدنيا،

(١) السمكية ص ٢٤٦.
(٢) شاعر مخضرم (جاهلي إسلامي) .
(٣) السمكية ص ٢٧٤.

فيردّ الأول السوء في الكون إلى المطامع، ويؤكّد الثاني مذهبه بإضافة سبب الزلل إلى الميول الشرّيرة، ويردّ الثالث السبب إلى نقصان العقل وعدم السعي إلى الرزق والرضى بما قسمه الله من أرزاق، ويؤكّد الرابع على الرزق المخصص لكلّ إنسان، ويحسب الخامس أن الفضل والتكرّم عماد الحياة، وأنّهما خير من الفضول، والسادس يلّخص رأيه في القول الشعري التالي:

قد وزع الله بين الخلق رزقهم لم يخلق الله من خلق يضيّعه

وفي المحصلة نجد «العبرة» الخاتمة، نوعاً من الوصايا، وتلخيصاً لمجمل ما ورد في الرسالة من تأكيد على القيم والتمسك بالتقوى، وهو ما يبقى للإنسان، بينما الشرور والمعاصي هي غلٌّ للإنسان في الدنيا والآخرة.

«ميزان العدل» بوصفه محاولة سردية:

- حضور السرد العربي القديم:

ما ورد آنفاً من تتبع المفاصل يوحي بأنّ الكتاب قامت بنيته على السرد الذي إستفاد من رافد القصص العربي القديم، وشكّل، هو ومجموعة الإصدارات في الزمن الأول للنهضة، تواصلاً فيما بين القصص القرآني والتراث الحكائي العربي، بما يلائم أحد الإتجاهات القائلة بضرورة حضور هذا التراث من جهة، وما يتضمنه من قيم أخلاقية، معظمها ديني، من جهة ثانية. فقد إستعار المؤلف من الماضي الأسلوب والصورة والأجواء القصصية العامة، ولم يحاول الإستفادة من الفنّ القصصي الحديث الذي أخذ يتدفق، في تلك الآونة، إلى المجتمع العربي، فبقي يهوّم في سماءات خاصة معنوية قيمية تهدف إلى الوعظ وتقويم السلوك الإنساني، مستفيدة مما يحتويه القصص من عناصر تشويقية تسهل على القارىء عملية الدخول في الأجواء الفكرية والقيمية والسلوكية، لأنّ النفوس، كما أشار السيد فضل الله، تميل إلى إلتقاط المعارف على شكل حكايات وسير.

- تعليمية المحاولة:

وقد كان السيد فضل الله يعلن في تجربته عن إمكانية تواجد هذا القديم في عصره، بوصفه درساً تعليمياً وتربوياً محدداً، مستفيضاً في الحكي عنه على حساب العنصر القصصي شكلاً ومضموناً، ولاجئاً إلى الباطن في مهمة توجيهية تكشف خبايا النفوس وما إنطوت عليه من ميول ورغبات وأوهام وإنحرافات .. من جهة، وما قرّ فيها من ضوابط وموانع تقف حائلاً من دون إنفلات الشهوات والآثام والشرور، من خلال العقل الإنفعالي المجلبب بالحلة الدينية المسهمة في تقويم السلوك من جهة ثانية.

لذلك أخضع السيد فضل الله قصته للفكر والوعظ، محاولاً تقديم بعض منافع الأخلاقيات وسواها من العلوم المعروفة لدى العرب، خصوصاً حول إستعمال العقل والمنطق، وحول الجسد ولذّاته الحسية (ص٢٣٣-٢٣٩) والعناصر الطبيعية التي يتكوّن منها، كالماء والطين (ص٢٢٠و٢٢١)، وجعل أدوات الجسد في خدمة الروح (ص٢٢٧) ..

كما يسهب في بسط الحديث عن المدركات النفسية ويجعلها باطنية وظاهرية، فالباطنية هي الحسّ المشترك والخيال والوهم والحافظة والفكر، والظاهرية هي السمع والبصر والشمّ واللمس والذوق. (ص٢٢١).

بالإضافة إلى الحديث المستفيض عن الطبائع (ص٢١٩)، والعلم ومظاهره في القرآن الكريم (ص ٢٣٠-٢٣٢) وكنوزه وطرقه (ص٢١٩).

وغير ذلك من الأمور المعرفية التي يتوجب على الإنسان التسلّح بها في إقدامه على مباشرة حياته القديمة.

- الواقع والرموز:

وفي حديثه، بهذه الطريقة يقترب السيد فضل الله من الواقعية، حيث يكتمل لديه المعطيان: الواقعي والمعنوي في شبه تلاحم لا يوحي بأنّنا يجب ألّا نبحث عنهما في مكانين مختلفين، وفي سلوكين مختلفين، وإنّما هما في حيّز واحد، ينطلقان معاً

ويحدّدان تجارب الإنسان وسلوكه. كما يعتمد السيّد الرمز بشكل واسع. فقد إستطاع قلمه أن يخلق عالماً من الرموز لقيم وسلوكات ومعانٍ ومدركات ... جعلها تمشي على الأرض وتتخاطب كما يتخاطب الناس، وتغضب وترضى وتثور وتشنّ الهجومات ... كما يفعل البشر تماماً.

والرمز المقصود هنا، لا يعني بالضرورة اللغز والتخفّي والمعاياة والمحاجاة .. بل يعني ما كان يتضمن حكاية لها غاية أو وظيفة معينة، وهو شكل مقنع من أشكال الكتابة، يهدف إلى غايات تعليمية ودينية وسياسية وأخلاقية ... وهو يكثر في الأمثال وقصص الحيوان والقصص الديني في التوراة والإنجيل والقرآن[1] ... ولعل «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري ومقامات السيوطي تكونان الأقرب إلى هذا المفهوم.

- إطلالات فلسفية وتضمينات دينية:

إن قارىء الرسالة لا يفوته أمران رئيسيان في نزوع الكاتب، وهما الإتّكاء على الفلسفة والفقه الديني. صحيح أن أدب النهضة قد زخر بهاتين السمتين، كما ألمحنا لدى فرنسيس مراش وفرح أنطون وأحمد فارس الشدياق في نزوعهم إلى الفلسفة كلّ من زاويته الخاصة ومعتقده الفكري، إلاّ أنّ السيد فضل الله قد غاص بها بشكل واضح، وأثقل شخصياته الرمزية بها، إلى حدّ حوّلها إلى منابر كلامية خطابية، حول الدين والفلسفة وعلم النفس وعلم الأخلاق وغيرها من المعارف والعلوم التي قامت حول الإنسان ظاهراً وباطناً.

- بين الذات والمجموع:

ولا ريب في أن إستقاء الحدث من الواقع لا يحتّم أن يكون الأثر المكتوب واقعياً شكلاً ومضموناً. وهي ميزة تواجدت في ثنايا الرسالة عن طريق إتباع تقنية التشخيص:

(١) نورثرب فراي- تشريح النقد (محاولات أربع)- ترجمة محمد عصفور ص ١٢٢- عمادة البحث العلمي- الجامعة الأردنية- ١٩٩١.

فجاءت الأفكار واقعية، إلّا أنها سبحت في فلوات أخرى، فكانت أرجلها على الأرض ورأسها في السماء. وهي سمة ميّزت الأعمال الروائية في ذلك الزمن عبر الحديث عن الذات والتوغل في تجاربها .. وهي ذات تتقاسمها تلك الخاصية الأناوية والأخرى الجماعية. فكأنك تقتنع بأن السيد فضل الله يمشي وحيداً لكنّه مع الجميع. تلك هي تجربته التي جعلها مصباً لتجارب الآخرين، على الرغم من أننا نسمع صوتاً واحداً موزّعاً على أصوات مختلفة لتعبّر عن المختلف في النوازع والتفكير.

- المتخيّل السردي والبدايات الفنّية:

قد يميل القارىء إلى تسمية «ميزان العدل» تجوّزاً رواية، وذلك ليس غريباً بالنسبة إلى العصر الذي ولدت فيها كمثيلاتها ناقصات في الإنتاج الروائي العربي المبكر، لأن الفن القصصي كان يحبو في مدارجه الأولى، حيث إنفصل أسلوب الكاتب عن مضمونه، ولم يستطع أن ينهض بفنّه القصصي إلى مستوى عباراته، لذلك جاءت أوصافه إلى الشكلية أقرب، ووُسِمَ بأنّه مزوّق ومنشىء، أو أنه «جدول يخرخر ونهر ثرثار تقطعه غير خالع نعليك»، كما يقول مارون عبود[1]، تتكرّر الأحداث من دون ترابط في سياق البناء العام للرواية، حيث تغلب عليها نزعة الوعظ والخطابية والخروج بعبرة من كل حدث، تتلاءم مع ظروف الموقف بغض النظر عن الأبعاد الفنية.

لقد تغلّب الوعي الديني على العنّصر الفني فأضعف بنيته الفنّية، فأنضجه توجيهاً دينياً ولم ينضجه وعياً فنياً، فظلّ في نطاق الذات التي هي، في ذلك الزمن، تتمحور حول الوعي الجماعي الذي رأى في الدين سبيلاً إلى إعادة الإنسجام إلى الحياة الإجتماعية.

وعدم القبض على فنّية العمل القصصي جعل أثر السيد فضل الله خليطاً من العديد من الفنون والإتجاهات. لذلك كان «ميزان العدل» يحتوي على بعض العناصر الروائية

(١) جدد وقدماء- مارون عبود- ص ٢٢٣- دار الثقافة- بيروت- ط ٤- ١٩٧٥.

والأخرى المسرحية، ويقيم أداءه على الخطابية، ويرصعه بالآيات القرآنية، ويدمجه بالشعر في محاولة تركيبية تذكّر بالسير الشعبية القديمة التي يختلط فيها النثر بالشعر، ويحاول أن يكون قريباً من المنطق والفلسفة والعلمية، في نثر يقدم المزيد من المعلومات والمعارف، وشعر يأتي وكأنه يدعم بحثاً أكاديمياً للتدليل على صحة القول، أو رسم سياق يحتاجه المقطع أو المقام السردي.

لذلك كان عمل السيد، في هذا الكتاب يقترب من السردية، لكنّنا نلمح فيه إفراطاً في الوصف الإنشائي المنفصل عن السياق العضوي للرواية، وعلواً لأصوات الوعظ الأخلاقي الذي يقطع السرد، بالتدخل الذاتي والخطابية المباشرة الواضحة، وعدم تطابق التسلسل المنطقي الروائي للزمن الموضوعي، وتواتر الأحداث والتضمينات المفتعلة، وتغليب للآراء والأحاسيس، ومبالغة في الحوار والوقائع وتقديمها على الحالة والجو والتحليل والفضاء الروائي، وغلوّاً في الأخلاقية المفرطة إنطلاقاً من همّ الأمانة الدينية التي غدت مقصد الكاتب الرئيس.

وفي عمل السيد فضل نلاحظ غياب العنصر الزمني، إلّا أننا نلمح وجوده في مكانين يخرجان عن السياق العام للقصّ: الأول حادثة سرقة السمك التي تمّت في حياة الكاتب بين عامي ١٨٦٤ و ١٩١٧. والثاني تأريخ فراغه من كتابة الرسالة في العام ١٣١٥ هجرية. وهاتان الإشارتان لا علاقة لهما بالوحدة العضوية والأخرى الموضوعية للعمل.

الأدوات الفنية في «ميزان العدل»:

- العصر والرواية:

وبما أن الكاتب السيد فضل الله أراد من كتابه تبيان العدل على حقيقته، فإنّ هذا العدل نفسه يدعونا إلى الإبتعاد من الإسقاط على عمله، ووزنه بميزان الزمن الذي أبدعه صاحبه فيه. وهو زمن كان الفن القصصي فيه يشهد ولادته الجديدة، ويتنازعه

تياران رئيسان: الأول الوفاء للماضي القصصي العربي، والثاني: الإستجابة لنداءات الزمن الحديث(بالنسبة إلى ذلك الوقت)، والذي أخذ بالإنفتاح على منتجات الغرب القصصية ... والسيّد متمسّك بأصالته العربية والدينية، وموقن بأنّه يخدم الأمة بتعزيز إبداعها الأصيل وطرحه أنموذجاً في بناء الحياة الجديدة.

ويبدو أنّ ما استعمله الكاتب من عناصر فنّية لا تخرج عن نطاق العصر، وثقافته الفنّية، حيث مقياس النجاح هو الإلتزام بهذا المحدود المتعارف عليه. وفي تقديري أنّ هذا المقدار من الإستعمال الأدواتي الفنّي كان حاجة عصرية أكثر مما هو حاجة عصر آخر. فما كُتب كان ملائماً للثقافة الفنّية التي تفشّت في المجتمع وتقبّل بعضها، لأنّ الرواية، وسواها من الفنون القصصية، لم تكن رائجة كثيراً أولاً، ولم تكن قراءة الروايات مستساغة لدى المحافظين. وللتدليل على ذلك أورد هذين المقطعين عن التحذير من قراءة الروايات، الأول في نطاق النصيحة لإحدى السيِّدات ورد فيها:»لا أشير عليك أن تقرأي الروايات الخيالية لأنّها غالباً ما تحرّك القلب حراكاً شديداً يخرجه عن طور المحبة المعتدل إلى الإحساس الشديد»[1]. والثانية تقويم عام للقراءة الروائية: «إلّا أنّ بعضهم (أي القراء) شغفوا بما يخالف الغاية المحمودة، فأخذوا يطالعون المصنفات التي تؤدي إلى مهاوي الفساد والعار والشنار»[2]

وهذا ما يشير إلى التردّد في الإقبال على الرواية، وأن الفضلاء ، أمثال السيد فضل الله، كانوا يحتاطون في خروجهم عن المألوف.

- عناصر السرد في «ميزان العدل»:

سبقت الإشارة إلى مقصد الكاتب من إخراج كتابه على شكل رسالة. وهذا يقتضي الوقوف قليلاً عند هذه التسمية.

(١) مجلة «صدى بابل»- عام ١٩٠٩- (عن مجلة الطريق: عدد ٣ و ٤ بيروت- ١٩٨١- ص ٤٤.

(٢) مجلة «لغة العرب» عام ١٩١٣ (عن مجلة الطريق- عدد ٣ و ٤- بيروت ١٩٨١- ص ٤٤.

فالرسالة نوعٌ من الإبلاغ يتضمّن معنى يُراد إيصاله إلى الآخرين. وإن كان سارقو السمك هم المثيرون لكتابة الرسالة، فإنّ الهدف تخطاهم إلى المجتمع بأسره، لأن مضمونها يهمّ الجميع.

وهي رسالة تتضمّن قصّة مفادها النهي عن السلوك الإنحرافي باستعمال أدوات خاصة، رمزية في أكثر الأحيان، أتت على شكل لافتات يحمل كلٌّ منها جانباً قائماً في الحياة العامة: الجهل والعقل والعلم والنفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء وأبو مرّة (الشيطان) وحاجات الجسد وملذّاته وميوله ... ويمكن للدارس أن يلاحظ في هذا العمل القصصي جملة من الأدوات المستعملة، حرّكت فنّية العمل، وساعدت على نموٍّ الأحداث وتقدمها ..

- العرض:

ولا ريب في أنّ المؤلف قد وعى مسألة التدرج في العمل القصصي، فجعل قصته تبدأ بسرد الواقعة (سرقة السمك)، وتنصرف إلى تبيان وقائعها. فهي من نتائج الجهل المحاط بجنوده وأدواته، وهي ليست وحيدة في الميدان، وإنّما يقابلها العقل الذي له جنوده أيضاً. ونتيجة لإشتداد الجدال بين الجهل والعقل يتأزم الموقف وتصل الأمور إلى ما يسمى العقدة القائمة على سؤال: من سينتصر في المواجهة بين الفريقين؟ وتأتي الإجابة بإتجاه الحل الذي يركن إلى منطق الحياة نفسها، تلك التي تقوم على ثنائية الخير والشرّ، وهي التي تتواجد على شكل صراع لا ينهيه الإ الموت والإنتقال إلى الآخرة. مروراً بأيام الحساب في عهدة الله سبحانه وتعالى. فتكون الهزيمة لقوى الشرّ في نقطة النهايات هذه، من دون أن يحسم الصراع في الدنيا المبتدأ.

- مضامين السرد:

ولقد إقتضى السرد وجود أشياء كثيرة من لوازم المكونات الإنسانية، وهي المنقسمة بدورها إلى لوازم نافعة وأخرى غير نافعة، وإلى مواقف عقلية ونفسية

تستغرق الأحاديث كلّها. لذلك كان الحديث مطولاً عن النفس وأنواعها (ص ٣٨) ولوازم الروح(ص ٣٩) وكلّ من النفس المطمئنّة والأخرى الأمّارة اللتين تشكّلان عنصرين رئيسيين من عناصر الصراع، وإلى جانب كلٍّ منهما قوى تساعدها. فالمطمئنة قوامها الزهد (ص٤٩-٥١)، وهي من جنود العقل، لجأ إليها المحتكمون، وهي تقيم في مدينة كلها أبواب وحرّاس وأجناد، ولها صفات، وفي حضرتها يخشع أضراب الناس. في بابها حاجب سديد الرأي، مكانه في مواجهة النفس الأمّارة، مزوّدة بعشرة من الجند هم: التوكيل والعفاف والحياء والرحمة والإستقامة والبذل والسخاء واليأس وذكر الموت والنشاط في العمل(ص٨٥).

وقد جعلت هذه النفس الزهد نديمها واوصته بأن يكون في مواجهة حبّ الدنيا، كما جعلت العلم في مواجهة الجهل (ص٨٦) والقنوع في مواجهة الطمع (ص ٨٦) ... وجعلت الجميع في مراكز دفاعية إستعداداً للمعركة مع الجهل ...

وفي هذا العرض، وضمن الفصل الأول، نجد أيضاً حديثاً مطوّلاً عن الجسد ولذّاته(ص٣٧) ونمّوه (ص ٣٩) وجنوده وحاجته ومساوىء الزيادة في متطلباته، وبواعث اللذات المتصلة بالشهوات (ص ٣٩).

يتابع الكاتب هذا العرض في المفصل الثاني، جاعلاً من السرد طريقة في تقديم المعلومات والمعارف والنصائح والوقائع المتخيّلة، حيث يصبح الحديث عن الدار الآخرة أساساً، وتستكمل النفس المطمئنة دورها الوعظي في المقارنة بين الحياة الدنيا والآخرة، مركّزة على المعاصي ومصائر أهلها وإنقسامهم في توزّعهم على الجنة أو النار. بينما يكون مصير أهل الطاعات إلى الجنة نظراً لأنهم تزوّدوا من الدنيا بخير زاد ليقيموا في خير دار (ص ١٣٤ و ١٣٥)، حيث السعادة الأبدية التي لها مقوّماتها وأسبابها. ثمّ ينتقل الكاتب إلى تسجيل وقائع الصراع بين الجهل والعقل في حركة فاعلة من جنود العقل بإتجاه جنود الجهل .. وهو صراع كلامي قوامه الجدال العقيم الذي يفضي إلى قلة حجة جنود الجهل، حيث ينبري القنوع والعفة والزهد والتقوى والعلم

بتقديم مرافعاتهم الطويلة على شكل خطابات تفنّد آراء الجهل ومواقفه (ص١٥٩ و١٧٣ و١٨٠ و١٩١ و٢٠٢)، فيكتب لها النصر الذي يغيظ الشيطان (أبو مرّة)، فيستعد للنزال والهجوم، حاشداً ما تبقى له من وسائل إغوائية، بأداء ضعيف لا يقوى على المواجهة، لكنّه يبقى خبيثاً مختبئاً في شقوق النفوس: يعاود إغواءها مرّة تلو الأخرى ..

وبذلك يكون العرض قد توجّه نحو النهاية، إلى رحاب الله القادر على كلّ شيء.

الشخصيات:

- **جبهات ورموز:**

عمد الكاتب إلى الرمز في رسم شخصياته الوهمية المعنوية التي ألبسها لبوس البشر، وشخّصها لتكون أدوات فاعلة، منقسمة قسمين رئيسين: جنود الخير وجنود الشرّ.

فمن خلال العرض السابق تبيّن أنّ السيد فضل الله قد حدّد فريقي الصراع، وحشدهما في سلك منظّم وموزّع على جبهتين:

١- جبهة العقل، وفيها النفس المطمئنة، وإلى جانبها التقوى وله جنوده وهم: التوكيل والعفاف والحياء والرحمة ...

والزهد وله جنوده وهم: الإخلاص والإحتفاء والشكر والقوام والخوف من عذاب الله والجدّ والقناعة والصدق والسلامة والنظر في العواقب ...

وكذلك كان العلم والقنوع والسعادة الأبدية .. جنودها المستعدّة دائماً للدفاع والهجوم.

٢- وجبهة الجهل وقائدها أبو مرّة (الشيطان) وأداته النفس الأمّارة بالسوء، وأهل المعصية وسارقو السمك ...

وهي شخصيات رموز ينطقها الكاتب بما يريد، ويهيل عليها من الصفات الإنسانية إلى حدّ التشخيص. حيث تغدو الشخصية بحثاً في موضوع معيّن مكتنزة بالمعلومات، في ترسيمات خيالية وجدلية وإجتماعية، تنهل من التراث الديني خطوطها وألوانها،

وتقيم الصراعات فيما بينها، كأنّها تدل على ما يجري من إنقسام الناس في تعاملهم بين خيّر وشرّير، ومعتدٍ ومسالم وأمين ولصّ ... وهو كثير في الحياة الإجتماعية، وأكثره بروزاً تلك الحالة السيئة التي إستشرت في نهايات حكم الأتراك، فعمّت الفوضى وكثرت الفتن وإنتشرت الرشوة، وطمع الباشوات الأتراك في جمع المال بأي طريقة كانت، وفتحت البلاد أمام المطامع الأجنبية فكثرت الإمتيازات، وإنقسم الناس في تبعيتهم السياسية، وأقيم عهد المتصرفية نتيجة للمشكلات الحادة بين بعض الطوائف اللبنانية، خصوصاً في العام ١٨٦٤، سنة ولادة الكاتب السيد فضل الله.

وهو أمر يسترعي الإنتباه في اللجوء إلى الرمز والتقّية في مهاجمة القوى الأجنبية والإحتلال التركي الذي بدأت شمسه تغيب. وما يلفت في هذا الصدد أنّ الكاتب غيّب شخصية القاضي الذي يفصل بين النزاعات، تاركاً الحكم لله على المذنبين والعصاة.

ولقد إنعكست هذه الأحوال السياسية العامة على لبنان، موطن السيد فضل الله، فساد التقاتل بين الأمراء على المصالح الخاصة، ونكّلوا ببعضهم، وأدّى ذلك إلى فقدان الأمن وسوء الإدارة وإنتشار الرشوة والفساد والسرقة والنهب ..

- الشخصية بين الواقع والرمز:

لذلك فإنني أرى أنّ شخصيات «ميزان العدل» أتت لتكشف هذا الإختلال في الميزان القضائي الذي شجّع عليه الأتراك وأصحاب الإمتيازات الأجنبية، الأمر الذي دفع السيد فضل الله إلى إستعمال الرموز لشخصياته.

ف «ميزان العدل» هو المقصود إيجاده في زمن لا يراعي عدلاً ولا يقيم وزناً للقيم الأخلاقية الدينية وغير الدينية.

والسمكة أو السمكية ليست إلا رمزاً للمطامع والمصالح الدنيوية التي تراعي الجسد ولا تراعي العقل والإيمان، تنطلق من الجهل وتبعد العلم من دائرة الضوء كي يفسح في المجال للسرقة والفساد والإنحراف.

وما القوانين الجائرة التي يحميها الجهل وأبو مرّة(الشيطان) إلّا صورة لاختلال التعاطي الإنساني.

وما الجنود المنقسمون على جبهتين سوى رمزٍ لإنقسام الحياة نفسها بين الأخيار الأشراف، وبين المستبدّين واللصوص المتسلطين على الناس من غير رادع.

وما حضور الحكم الإلهي إلّا دليل على العجز الإنساني في حلّ معضلاته الإجتماعية والسياسية والإقتصادية ... فهو القاضي الذي بإمكانه تفعيل «ميزان العدل».

لذلك نجد هذا التشابه بين رموز الشخصيات وحالات الواقع القائمة في المجتمع، سواء أكانت حاكمة أم فئات شعبية ضالة، وجدت في أن إقتناص نصيبها المزعوم لا يؤخذ إلا بهذه الطريقة.

وفي «ميزان العدل» (السمكية) يكفي أن يكون الرمز مشيراً أدنى إشارة إلى المرموز له لنكتشف المخفّي المقصود من عرض الظواهر.

وفي الواقع ثمّة ساسة وأمراء يتنافسون على نيل المصالح، يتناحرون من أجل السيطرة وتوجيه الحياة إلى ما يرغبون. وهم يدركون أن فرديتهم لن توصلهم إلى المبتغى، فيجيشون الجيوش ويكدّسون الأنصار إعتماداً على الإغراءات، لا سيّما المال والأطماع الجسدية، لذلك شاعت لفظة «مرتزقة» في ذلك الزمن وسهّلت لهواة الصراع حشد الجيوش بإستعمال الدوافع الرخيصة.

وفي «ميزان العدل» لم يمثل الخليفة العثماني حكم الله، وترك الأمر على غاربه هو وأتباعه والمتعاونون الطامعون من الأجانب ... وهي إشارة من السيد فضل الله إلى أن هؤلاء الحكام قد إنحرفوا عن ما أمر به الدين وإبتعدوا من تعاليمه، ولم يحققوا السعادة المؤقتة على الأرض، ولا الأبدية في الدنيا والآخرة. لذلك كان الحساب ينتظرهم.

- الشخصية ونظام الكون:

وهو ما حاول السيد إظهاره في حشد الجيوش وتبيان المطامع، إلّا أنه أوضح من

خلال الجدل القائم في القصة، أنّ حجة جبهة الجهل هي دائماً ضعيفة ولا تقوى على الدفاع عن نفسها في محفل القول والصراع- الكلام. من أجل هذا كان لجوؤها إلى الأعمال الخبيثة وذرّ التفرقة بين الناس كي تسود ويختل ميزان العدل.

إلّا أن السيد كان يدرك تمام الإدراك أنّ ثنائية الخير والشرّ في الوجود الآدمي لن تنتهي على الأرض. لذلك لم تحقق هزيمة الجهل الإنتصار الدائم للعقل في الدنيا. وهي إشارة نجدها بعد الصدام المنتظر بين الجبهتين (العقل والجهل) في عنوان: «هجوم مضاد» عماده «كيد الشيطان» والتباس الأمر لدى جنود الجهل وتمثّل النفس الأمّارة في هيئة السمك، وحنق إبليس الذي أخذ يعدّ العدّة للهجوم من جديد. كما نجده في الموقف الديني الأخلاقي المتثمل في عنوان «العبرة»، حيث تعدّد الأصوات والآراء حول الوجود الإنساني، وسلوك الناس وإختلاف تعبير المتكلمين عن ما يجري في الواقع. لذلك كانت كلها أماني كاذبة، ولا حلّ إلا بصحوة الروح واستفاقة الضمير والخلوص لله عزّ وجلّ.

وعلى الرغم من إكثار السيد فضل الله في الحديث عن العلم والمعارف، فإنّ الشخصية المرموز إليها بالعلم المعتمد على الإيمان ظهرت هي الأقوى، وهي التي لم يستطع المتجادلون أن يدحضوا براهينها المكثفة. لذلك كانت سبباً في تراجعهم ولجوئهم إلى المكر والخداع وتزييف الحقائق بالردّ على منتجات العقل المعرفية ... على الرغم من ذلك كلّه فإنّ السيد أراد أن يشير إلى حقيقة واقعية وهي: أنّ وجود العلم من غير إستعمال وتطبيق قد يؤجّل حسم النزاعات بين الناس، أو قد يستعمل العلم في غير ما وضع له في الحقيقة.

وبذلك تكون الشخصية هي وقائع الحياة نفسها، محوّلة إلى منطق نظام الكون القائم على الصراع في ثنائية الوجود الضدّية التي تدرك السؤال الأبدي: إلى أين مصير الإنسان؟ لتكون الإجابة في الموت، عند بارىء الدنيا ومصنّف أهلها بين الثواب والعقاب.

- الشخصية بين الباطن والظاهر:

يبني السيد فضل الله شخصياته الرمزية على قاعدة التوازن بين الداخل الإنساني وخارجه. ولقد نجح في التوفيق بينهما عبر متخيّل يوهم أنّ الشخصيات واقعية، تسلك سلوك الإنسان الواقعي في قيامه بمهمّاته الوجودية. وقد كان غياب الملامح المادية الخاصة بالشخصية مساعداً له على الإيفاء بالحركة الفّنية التي أهالها على موجوداته هي ملامح قيمية وليست مادّية، من خلالها إستطاع أن يركّب رمزه الذي بدا متمارداً في الزمان والمكان والفعل. فشخصية الجهل قابلة للزيادة والنقصان والمبالغة والتحجيم ... فيض المعلومات أو إختصارها هو ما يحدّد ملامح الشخصية. لذلك إستطاع السيّد أن يضيف إلى هذه الشخصية ما حوته ثقافته الواسعة عن المآثم والشرور والفساد والإنحراف والعصيان.

الشخصيات إذاً ملامحها مفتوحة على الإضافات، وهي إضافات تمثّل واقع الفعل الإنساني مرموزاً إليه إمّا بالشرّ وإماّ بالخير. لذلك تحسُّ وأنت تقرأ عن جنود الجهل وجنود العقل والنفس، سواء أكانت مطمئنة أم أمارة بالسوء ... وكأنك تقرأ عن مثل تعرفه، يعيش بين ظهرانيك، ويبادلك الفعل، ويحاول أن يكون واقعياً بما هو عليه. ومن جهة ثانية يخالجك شعور بأنّك تقرأ عن جماع الصفات الحميدة، أو شتات الصفات الشرّيرة، بحثاً مكثفاً يلمّ ما قيل عنه.

والأثر البيّن في «ميزان العدل» أنّ الحوادث تجري في شعاب النفس التي لها جغرافيا واضحة، وهو المكان الذي تتخيّل أنهّا موجودة فيه. فالمؤمن يجد رحابه في زوايا المساجد ومع الأتقياء وفي الجنّة التي يوعد بها المؤمنون ... بينما العاصي يتواجد في أماكن ينفر منها الإنسان (الجحيم والنار وسقر ...) وفي لقاءاتٍ مكانها بعيد من التجمع الإنساني الصائب. وتراها تفكّر بالإستيلاء على أماكن الآخرين ومحو جغرافيتهم.

هذ البناء العام للشخصيات تطفو على جدرانه آثار النفس وطواياها... وما تحدّث عنه الكاتب بإسهاب هو النفس في مختلف أحوالها، فجعل هذه الأحوال في قطاعين من هذه القاعدة:

١- النفس المطمئنة وما يدور في فلكها من قيم وآراء وعقل ومشاعر وأحاسيس وتقى وزهد ... وما يلتفّ حولها من رموز للقادة والجنود ... وإتجاهها الدائم نحو الخير .

٢- والنفس الأمّارة بالسوء وما يتشكّل فيها من أفكار ومواقف وآراء وميول ورغبات مقيتة.

والصراع في القصة: نفسي بإمتياز، طرفاه الخير والشرّ، وما يصدره كلّ طرف من قول وفعل. هذا الصراع مداه الداخل. أمّا إطلالته على الخارج فكنايات مرسومة للتدليل الإشاري إلى حقيقة الواقع.

- التشخيص:

وهو أن تهيل صفات إنسانية على موجود غير بشري. وهي سمة عامة في أدب السيد فضل الله، حيث تتحول الرموز عنده إلى شخصيات يشعرك بأنّك تعاينها في الواقع.

فهو يشخص العفة، كما شخّص بقية رموزه (ص١٧٣)، حيث نراها تبادر وتقيم وتلبس وتتلو وترمق وتتكلّم وتلوم وتوضح مواقفها، وتخاطب الآخرين بأدوات الخطاب (الكاف وأنتم وأنّكم ...)، وتقيم الحوار مع النفس الأمّارة التي تجادلها وتصارعها حول الأفعال والسلوك والنوايا والتجارب (ص١٧٤ وما بعدها).

وكذلك هو الزهد: يخطب ويروي ويتبادل التهم ... (ص ١٨٠) فإذا به ينهض وله جبين يظهر عليه النور، ومنطقه ينبوع، ويحمد الله دائماً، وينشد الشعر (ص١٨٢) ويميل بعنقه نحو الأمّارة ويهاجمها قائلاً:»ويحك»(ص١٨٢) ...

بينما العفة تشرح وتناقش (ص١٩٩)، والعلم أيضاً يحاور وينهض (ص٢٠٣) وله هيئته الوقورة المّميزة (ص٢٠٣) ويؤثر في الحاضرين فيقنعهم (ص٢٠٧) ويفيض

بالمعلومات ويسبّح الخالق (ص٢٠٩) ويعطي البراهين والأدلة (ص٢٠٩-٢١١) ويبسط في حديثه العلمي (عن الأرض مثلاً) (ص٢١٥) ...

وهكذا تتشابه الشخصيات، كلّ في قطاعها من القاعدة، فالخيّرة هي على العموم شخصيات راوية ومثقفة وواثقة وجديرة بالإحترام، يجلسها الكاتب في أماكن نبيلة لأنها تصدر من نفوس نبيلة، وفعلها إيجابي وأهدافها تثقيفية ووعظية من وحي الدين .. قارئة التاريخ وعارفة بالجغرافيا (ص١٩٩-٢٠٠) وحافظة الشعر (ص٢٠٢) وحافظة القرآن وعاملة بموجبه ... وهي تجيد القول وتحسن إستعمال اللغة .. لذلك هي تتشابه، وكلامها يصدر من منبع واحد هو الكاتب، بحيث أنّك لو إستبدلت الشخصية الرمزية بسواها لوجدت فروقات طفيفة بين سكان القطاع الواحد من القاعدة. وهو ما يمكن ملاحظته من أنّ الكاتب يلبس شخصيته لباسه الخاص فيحمّلها معارفه، فتغدو أصواتاً متنوعة بأداء خاص يعود إلى الكاتب نفسه.

- الحوار ومنازل القول:

يقيم السيد فضل الله بنيته الكلامية على الحوار المتشعب والطويل والمتنوّع، والمثقل بالمعلومات الفقهية والقيمية والتراثية والإنسانية، يحشد الأقوال على ألسنة الشخصيات الرمزية، وكأنّها تؤدي أمانة ما، أو تبعث الإبلاغ تلو الآخر من المكان نفسه والمنبر نفسه والأداء الكلامي نفسه ...

وهو حوار مشتق من تفاعلات النفس مع القيم، لذلك لا تخرج من نطاقها. والنفس هنا هي نفس الكاتب في ما تحب وما تكره، فيما تحبه من قيم ومواقف ينبغي أن تسود، وفي ما تكرهه من مفاسد وشرور ينبغي أن تحذف من قائمة العمل الإنساني ...

لذلك إختزل هذا الحوار ليكون مبعثه عدّة نفوس في الظاهر، ونفس واحدة هي نفس الكاتب في الباطن.

وهو حوار طويل في مواضع، ومقتضب في أخرى، لكنّه يغلب عليه الإسهاب وحشد

المعلومات والبطء في الأداء، والخطابية في الأسلوب، والإستغراق في النعوت والأوصاف والضروب البلاغية والبيانية.

ومن شأن هذا أن يبطىء الحدث ويؤخر التتابع القصصي بما يخلقه من فراغات تملأ بالوقفات الكلامية. ولعلّنا نعذر الكاتب في ذلك لعدّة أسباب:

أولّها: مجاراة الأساليب العامة الحياتية للعصر، قبل أن تحسم مسائل فنية أدبية، ولغوية كثيرة في الصوغ العربي الناشىء في النهضة.

وثانيها: الهدف من الكتاب الذي هو رسالة ابلاغية عن حقائق إصلاحية ووعظية، في زمن التحوّل العربي من الإنحطاط إلى النهضة والحديث.

وثالثها: عدم نضج الفن الروائي في بلاد العرب في هذا الزمن المبكر من النهضة.

ورابعها: عدم خروج السيد فضل اللّه في تحريراته عن السائد.

وخامسها: موقعه الديني الذي يحتم عليه أن يكون واعظاً ومبيناً ومذكراً بالدين وفوائده في زمن كان يحتاجه الناس.

- الحوار- الراوي:

لذلك شغل السيّد بتقديم العلم والمعرفة، فأفرغها في هذا القالب الذي ضمّ شيئاً من الفنون الأدبية، ومنها القصّ والمسرحة والخطابة والترسّل والإهتمام بإخراج الصورة المشرقة للغة العربية. وهي جميعها تعتمد على الحوار وسيلة لإبلاغ رسالة الكاتب.

إنّ أبرز ما في هذا الحوار بناؤه على الثنائيات الضدّية. فالإنقسام الحاد بين طرفي القاعدة البنائية جعل هذا الحوار يتوزّع على ثلاثة محاور رئيسة، من حيث الراوي ومنظوره:

الأول: محور الكاتب، والمتجلي في شروحه وتعليقاته وإستنتاجاته وإضافاته في غير مجال، وهو محور يشدّ أزر مسالك الخير.

والثاني: محور قطاع الخير (العقل والنفس المطمئنة والعلم....)

والثالث: محور قطاع الشرّ (الجهل والفساد وإبليس .....)

وتتجلّى هذه الثنائية في جملة مظاهر منتشرة في تضاعيف الرسالة .. وقد إستوفى الكاتب بنيتها وحافظ على وجودها حتى النهاية التي تمثلت على شكل رأس حادّ يجمع الضدّين في نقطة واحدة، هي تعبير عن وحدانية الله، كما تظهر في أعلى الرمح على رؤوس المآذن.

هذه الثنائية هي طرفا الحوار الذي غلب عليه الجدال والنقاش في معظم الأحيان... والإسلام، كما يقول سماحة الشيخ محمد حسين فضل الله، «هو دين الحوار الذي يطلق للفكر أن يفكر في كل شيء، ليتحدّث عن كل شيء، وليحاور الآخرين على أساس الحجة والبرهان والدليل، ليعلّمهم كيف يصلون إلى قناعاته وآفاقه بالكلمة الحلوة والأسلوب الطيّب والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن»[1]

وهو الحوار الذي أراده الكاتب في «ميزان العدل»، قائماً على البراهين والأدلّة، منطلقاً من المنطق الواثق، هادئاً هدوء الماء الرقراق ينساب الى مستقرّه من دون صخب وتلاطم.

بينما اكتنف الثنائية الحوارية نوع من الجدل يجيئ على لسان المعاندين والعصاة أنصار الجهل الذين يسعون الى فرض آرائهم من دون منطق.

وعلى الرغم من أن لفظة «جدل» قد وردت في القرآن الكريم في معرض مراوغة الكفّار وتهربّهم من الاقتناع بما يطرح أمامهم، فإن الله أوصى الرسول ﷺ أن يكون جداله مقروناً بالنصيحة: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[2].

وكأني بالسيد فضل الله في «ميزان العدل» يتبع الآية الكريمة في سياق الموقف المتشدّد

(١) الحوار في القرآن الكريم: قواعده، أساليبه، معطياته، سماحة السيد محمد حسين فضل الله- ص(ط) - دار التعاون للمطبوعات- بيروت - ط٥- ٩٨٧.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٥.

الذي يبغي النيل من الدين. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [1].

وهو إتباع يسهم في بناء القصة من البداية إلى النهاية: الجدال الذي لا ينتهي الكلام فيه إلّا عند الله في الآخرة، كما يسهم في إقامة الثنائية الحوارية بين الجهل من جهة، والعقل والعلم من جهة ثانية، فلا يتوصل المجادل إلى إنهاء الكلام حتى النهاية المحتومة بالموت.

ولقد إتسم حوار «جبهة العقل» بالمنطق والهدوء وتقديم الأدلة والبراهين، فكان لأركانها «منابر (الإيمان منبر المطمئنة، ص١٠١) كما كان لهذه الأركان سياقات أقوال (قول السعادة الأبدية (ص١١٣)، كما لها تساؤلات مطوّلة عن موضوعات مختلفة (الهداية والدراية والألباب والنهى... مثلاً (ص١٣٩)، وفيها ترصيع الكلام بالآيات القرآنية(ص١٣٩، وفي مجمل الكتاب) وفيها كلام للرسولﷺ مثلاً (ص١٤٤)، وينتشر فعل قال ويقول في مواضع لا تحصى، مثلاً قالت السعادة (ص١٥٨) وقال العلم (ص٢٠٥) والعلم يخطب (ص٢٠٦).

- الراوي:

يتفق الدارسون على أن تنوّع الشخصيات في العمل الروائي يؤدي إلى تعدّد الأصوات والرواة. وصحيح أنّ الكاتب هو الذي يروي ويوزّع الحوار، ليس كما يشاء، بل كما تشاء طبيعة الشخصيات ذاتها. لذلك كان تعدّد الأصوات في الرواية دليلاً على الإبتعاد من ذات المؤلف ورغباته وأفكاره، وإلّا غرق العمل في دوّامة سيطرة الروائي على شخصياته وجعلها تقول ما يريد قوله.

(١) سورة النساء: ١٠٧-١٠٩.

وفي الحقيقة إنّ وجود الحوار في «ميزان العدل» قد أسهم في تقريبه من الفنّ الروائي. لكن السيّد فضل الله وحّد هذه الشخصيات، وحمّلها من الحوار ما يريد إيصاله في رسالة أرادها أن تصل إلى الناس. لذلك، ليس من الصعب إكتشاف أنّ الراوي فيها هو واحد، على الرغم من تعدد الرواة، وأنّ الصوت واحد، على الرغم من تعدّد الأصوات وتنوّع مصادر القول.

ولقد أسهم ذلك الأسلوب في إضفاء التنوّع على العمل وإخراجه من الرتابة العلمية وجعل القارىء يتابع أخبار المعارك الكلامية بين المتصارعين، بالإضافة إلى أنّ هذا الحوار الجاري بين الشخصيات الرمزية قد أضفى من الحيوية ما لا نجده في الكتب الفقهية أو العلمية عموماً.

في هذا العمل إذاً ثمَّة تعدّد للرواة، كلٌّ يروي ما حمّله الكاتب، فالنفس المطمئنة تروي(ص١٠١ وغيرها) والسعادة الأبدية(ص١١٣ و ١٣٨ وغيرها)، والكاتب (ص١٣٩ و ١٣٨ و ١٤١ وغيرها) والقنوع يروي(ص١٥٩-١٦٩) والنفس الأمارة تروي(١٧٢ وغيرها)، وكذلك العفة(ص١٧٣) والزهد(ص١٨٠) والتقوى(١٩١) والعلم (٢٠٢). وغير ذلك كثير من المواقع التي يتناوب الرواة فيهاالكلام. بالإضافة إلى مصادر ومراجع كثيرة يستعملها الكاتب ويورد إقتباسات منها نثراً وشعراً، تخدم الهدف الذي يريد إبلاغه.

- الصوت اللغوي الواحد:

والدليل القاطع على توحد مصدر الرواية هو الصوت اللغوي الواحد المعبّر عن مضمون الرسالة. فأنت لا تكاد تميّز تعبيراً جاء على لسان راوٍ عن آخر، حيث نجد الإنسجام يسود المقاطع كلّها، في تساوق الكلام في مساواة تضفي إيقاعاً ملحوظاً في تتابع الجمل المتساوية، وإستعمال السجع ذي الرنين الممتد من دون تكلّف يؤذي الأذن.

ولا عجب في ذلك، فالسيّد فضل الله ينتمي إلى جيل جعل الكتابة البيانية منهجاً

يسير عليه، وكأنيّ به يعتزّ بفضائل العربية ومنشئيها القدماء كإبن العميد والصابي.

لذلك جاءت عباراته في حلّة من التأنّق البياني المليء بالصور الراكنة إلى الإستعارة والتشبيه والمجاز بضروبه المختلفة. وقد تعجب بمهارة تصويره،وإحاطته بالمعنىمن كلّ جانب وتتبعه اللفظة إلى مظانّها، وبعرضه الموضوعي القائم على السببية والتعليل والتسويغ، وغزارة الأوصافللشيء الواحد حتى يأتي على جوانبه كلّها، وتلفتك ظاهرة حرصه على التفسير إذا أحسّ يغموض المعنى، كما تلفتك إختياراته الإقتباسية من الشعر الذي تغرق فيه الرسالة، حتى يستغرق نصفها. إقتباس يتبع قاعدة لكلّ مقام مقال، فيورد الأبيات في مقطوعات وقصائد، له ولسواه، شديدة الملاءمة لما يذهب إليه، وكأني به يريدها محطاتٍ متعددة المهمة: فهو يدعم بها أقواله، أو يفسرها ويوضح ما استغلق منها، كما تشكّل إستراحةوجدانية ينعم بها القارىء بعد تجواله الصارم في المعلومات المكثفة التي تحتشد حول الموضوع الواحد.

وفي ذلك يظهر السيّد متعدّد المواهب، ومنوّع المصادر، يملأ قلبه الإيمان وتستولي عليه الرحمة، فينظر إلى الإنسانية بقلب شفيق، شغوف بالعلم والإيمان، متطلع إلى مجتمع يسوده العدل، خالٍ من الأسباب المؤدية إلى الآثام والشرور، ومن الجدل العقيم الذي يربك قافلة الحياة ويجعلها في مراوحة، بعيدة من التقدّم وقريبة من الجهل الذي يحرق نفسه في حرقه الآخرين.

لذلك كان «ميزان العدل» (السمكية) مشروعاً تنويرياً جامعاً مزايا كثيرة: فيه الإيجابي الذي ينبغي أن يبقى ويتطور، وفيه تحذير من السلبي الذي يجب أن يختفي ويموت. ولعلّ الكاتب في زمنه، وفي غير زمنه، يكون مفتاحاً للمعارف والعلوم، كما يكون وثيقة إنسانية ترسم خطى الإنسان السائر نحو المجهول، في خضمّ التغيّرات المحلية والعالمية التي لا تعير أيه أهمية لحماية الإنسان، وتتجاهل الأخلاق والقيم، وتمضي في حسبانها الناس أرقاماً من غير أرواح. هذا هو الذي رآه السيد فضل الله وأراده أن يكون.

أ. د. أحمد حطيط[1]

«الإمامة في فكر العلاّمة السيّد محمد رضا فضل اللّه الحسني»

أولاً: مدخل

من فضل اللّه على الأمة أن يهب لها إبّان يقظتها واستقامة الأمر فيها، صفوة من أبنائها الصالحين، من أولي الكفاية الفائقة، والموهبة البارعة في العلوم، فتتقسمهم بينها مطالب الحياة فيها، ومنازع العصر الذي يظلها، كل في الموقع الذي هو به أحق وله أصلح، فإذا هم هنا وهناك، مشارق نور وروافد خير وصلاح، تجري في الناس بما ينير العقول، ويعمر القلوب، فيتهيأ للحياة أن تتوازن، ولركبها أن يواصل مسيرته إلى الغاية المرجاة.

ولقد وهب اللّه جبل عامل والأمتين العربية والإسلامية من هؤلاء نخبة من العلماء، كانوا رجالاً لهم وزنهم في بيئتنا العاملية واللبنانية والعربية والإسلامية ديناً وعلماً وثقافةً وفكراً وأدباً.

واليوم نلتقي في مؤتمر لتكريم رائد كبير من هؤلاء الرواد، عنيت به الحسيب النسيب

(١) عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية، في الجامعة الإسلامية في لبنان

إبن الأسرة العلمائية، العلامة السيد محمد رضا فضل الله، إنه مثلٌ من علماء الرعيل الأول في النهضة العلمية في جبل عامل مترافقة مع نشوء المدارس الحديثة في بلاد عاملة، منذ العام١٣٠٠هـ /١٨٨٢م[١]، فصعد السّلم درجة درجة في خدمة العلم، والدين، والعقيدة، حتى بلغ القمة، وعكف على التحصيل، يطرق إليه كل باب، ويتتبع كل مورد عذب، ينهل منه ما يروي ظمأه، حتى صار بحراً تتلاطم أمواجه، ويحتفظ في قراره المكين بدرر من طرائف الأدب وشوارد الحقائق التي تتطلب سعياً حثيثاً، وبحثاً عميقاً وتوفراً على الإطلاع.

ولد السيد محمد رضا فضل الله عام١٢٨١هـ / ١٨٦٤م، في بلدة (عيناثا)، إحدى الحواضر العلمية والأدبية العريقة في جبل عامل، وتوفي في بلدة (قانا)، ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م، ودفن فيها، وهو فقيه، وشاعر، وأديب.

ترعرع السيّد في رحاب عائلة علمائية عريقة، مشهود لها في ميدان العلم والشعر والأدب، كما نهل من بيئته العاملية علماً وثقافة ما تزخر به من تراث علمي، إضافة إلى ما اكتسبه من بيئة النجف الأشرف وحوزته العلمية، منذ العام ١٣٠٨هـ /١٨٩٠م، من ترقّ في ميادين الفقه والأصول والفلسفة، ليبلغ مرتبة عالية من الإجتهاد[٢]، ولم يكتف بما حازه من المراتب العلمية المرموقة، بل قرن العلم بالعمل من خلال انخراطه في الشأن العام، ورفعه لواء محاربة الفساد، وإصلاح المجتمع، والنهوض بالأمة، وتناوله دور العلماء وصلاحياتهم ومرجعيتهم في الولاية على الناس[٣]، مسهماً بذلك، في حركة التجديد في العقيدة وفي علوم أصول الفقه تتصل بمحتواها وبطريقة تدريسها التي حققها بعض علماء جبل عامل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد شكّل ذلك إطاراً فكرياً جديداً لدى علماء الشيعة، سمح لهم بعد ذلك بتوسيع دورهم في المجتمع، ولا سيما في إنشاء موقف سياسي والدفاع عنه، كان سماحة السيد من الرواد في هذا المجال[٤].

(١) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، دار النهار للنشر، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢٤٠ وما بعدها.

(٢) محمد رضا فضل الله، الإمامة، دار المحجة البيضاء، تقديم وتحقيق معروف محمد تقي فضل الله، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٣، مقدمة التحقيق، ص ص ١٠-١٢.

(٣) محمد رضا فضل الله، المصدر نفسه، ص ١٢-١٤.

(٤) صابرينا ميرفانا، حركة الإصلاح الشيعي، ترجمه عن الفرنسية الدكتور هيثم الأمين، الطبعة الأولى، دار النهار للنشر، بيروت، ص ١٤٣.

صنّف العلامة السيد مجموعة من الكتب في العقائد والأصول والفلسفة والحكمة والأدب والشعر، طبع منها:

ميزان العدل في المحاكمة بين جنود العقل والجهل، عرف بـ«السمكية».

المجموعة، القصائد والرسائل.

الإمامة، الأدلة العقلية والنقلية.

إضافة إلى جملة من الرسائل في موضوعات ومناسبات مختلفة لا تزال مخطوطة.

ثانيا- قراءة في كتاب «الإمامة»

لئن اخترت كتاب «الإمامة» من بين مؤلفات السيّد محمد رضا فضل الله، آنفة الذكر، موضوعاً لدراستي، فإني سأسعى، جهد استطاعتي، لمقاربة مفهوم الإمامة في فكر سماحة السيد من جهة، وإجراء مقارنة بين مفهوم الإمامة عند الشيعة والفرق الإسلامية الأخرى.

فالإمامة كانت ولا تزال، من القضايا ذات الشأن في الفكر الإسلامي، بل شكلت قضية كبرى اختلف المسلمون بشأنها، بعيد وفاة الرسول ﷺ، لتستمر في مقدمة المسائل التي فرّقت كلمتهم، كما أنها تعتبر سبباً رئيساً من أسباب نشوء الفرق الكلامية والمذاهب الفقهية.

وفاة الرسول وتداعيات حدث السّقيفة:

وقبل أن نتطرّق إلى مفهوم الإمامة في فكر الفقيه السيد محمد رضا فضل الله، نرى أن نمهّد لذلك بعرض موجز للظروف والملابسات، التي أدّت إلى الخلاف بين المسلمين حول أحقيّة خلافة الرسول ﷺ.

قُبِضَ الرسول محمد ﷺ في الحادية عشرة للهجرة، وهو مطمئن إلى اكتمال الدعوة ورسوخها في شبه الجزيرة على حساب الوثنية، مؤسساً دولةً للإسلام في المدينة المنوّرة تولى قيادتها بنفسه. بيد أن مشكلة خلافة الرسول سرعان ما ظهرت إلى العلن، حتى قبيل دفنه، حين تنادى جمع من أعيان الصحابة من الأنصار (الأوس

والخزرج) إلى عقد اجتماع عاجل في سقيفة بني ساعدة الخزرجية، الواقعة شمال غرب المسجد النبوي لبحث مسألة الخلافة، فأدركهم جمع من أعيان المهاجرين قوامه أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجرّاح، انسلوا من بين جموع المؤمنين الحافين بجثمان النبي، وناقشوهم في الأمر، ونفذوا منه إلى إقناع هؤلاء بمبايعة أبي بكر بالخلافة، متذرّعين بحديث منسوب إلى الرسول ﷺ، مفاده: «الأئمة من قريش»، وقيل: «الإمامة لا تصلح إلاّ في قريش».

حصل ذلك في وقت كان علي بن أبي طالب وآل بيته عليهم السلام، وجموع من الصحابة والمسلمين، متحلّقين حول جثمان الرسول ﷺ، وحين أتمّ هؤلاء غسل الرسول ودفنه، وعلموا بما جرى، استنكروا الأمر، وأعلنوا رفضهم لنتائج اجتماع السّقيفة، وطالبوا بأحقية أهل بيت الرسول بالخلافة، وأجمعوا بأن علّياً أولى بالخلافة من أبي بكر، وأنه المؤهّل شرعاً لإمامة المسلمين ومسك زمام أمورهم بعد الرسول.

وعلى الأثر إنقسم القرشيون ومعهم سائر المسلمين، إلى فريقين اثنين: فريق شايع علي بن أبي طالب، إبن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة بذريعة أن الرسول، قد تأسّس هو من نص على علي خلفاً له، وأن هذا النص قد تأسّس بموجب أمر إلهي كشف عنه النبي في غدير خم، قبيل وفاته بوقت قصير فسمي هؤلاء عموماً بـ «شيعة» علي، أو «الشيعة» على سبيل الإختصار، فيما أمر الفريق الآخر بشرعية خلافة أبي بكر وخليفته التاليّين عمر وعثمان، لتستحيل إمامة المسلمين مع مرور الزمن مشكلة شرعية وفقهية شائكة قضت مضاجع الدولة الإسلامية الفتية، ونالت من هيبتها ووحدتها، فتعرّضت بين الحين والحين لخطر الإنقسام والتشرذم[1].

ما أبرز محتويات كتاب الإمامة، وأين وقف السيد محمد رضا فضل الله منها وكيف صاغ أفكاره الخاصة بها؟

(١) مادلونغ، مقالة « الشيعة »، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد ٩، ص ص ٤٢٠-٤٢٤.

يشكّل كتاب «الإمامة» محاولة رصينة للتصدي لموضوعات المعرفة ومعضلات الوجود، وتفسير النص الديني، التي كانت تتطرح أمام المجتهد، وتتصادم معه لتؤلف إشكالية معقدة تستوجب مقاربتها بالحجة والقرينة.

قسّم المؤلف كتابه إلى بابين اثنين[1]:

تناول في الباب الأول «الأدلة العقلية والنقلية»، مبيّناً أنَّ العلة الداعية إلى بعث الأنبياء وإرسال الرّسل هي إزاحة علل الخلق، وقطع محاذير العباد، ودحض حججهم، إذا أراد أن يجازيهم بأعمالهم يوم الجزاء.

أما الدليل العقلي، فواضح بيّن لقبح العقاب من غير بيان.

وأما النقلي، فالآيات متكاثرة والسُنّة متضافرة»[2]، ويردف هذه المقدمة بآيات من القرآن الكريم، شواهد على ما أراد تبيانه والتأكيد عليه، ثم يذكر الأدلة النقلية التي تصرّ على الإختيار من الله تعالى على حججه على عباده وأمنائه في بلاده، وأن الإختيار لله لا للخلق والعباد لعدم معرفتهم وقصور عقولهم، كما الآيات الدالة على وجود الدليل، وقيام الحجة، وعلى وجوب إتباع الأئمة الدعاة إلى الله الأدلاء على مرضاة الله، والآيات التي تشير إلى من استحق الإمامة من ذرّية إبراهيم، وعلى أن الخلق محتاج إلى من يقوم به صلاحه ويرتفع فساده، ويبيّن به رشده ويمحي غيه وضلاله.

ويذكر السيد فضل الله ست صفات للأنبياء نذكرها باختصار:

الأولى: أن الله تعالى لما أوجد خلقه وفطر عباده، وجب عليه أن يقيم لخلقه سفراء بينه وبين عباده.

والثانية: أنه لما أرسل رسله إلى خلقه أقامها من جنس الخلق لا من جنس الملائكة.

والثالثة: أن الأنبياء الذين أرسلهم كانوا باختياره لا باختيار عباده وخلقه.

(١) تجدر الإشارة إلى أن تبويب كتاب «الإمامة» هو من عمل المحقق.
راجع مقدمة تحقيق الكتاب، ص ١٣-١٤.

(٢) محمد رضا فضل الله، الإمامة، ص ٢٣- ٨٠.

والرابعة: أنه لما أقامهم بين ظهراني البشر عرّفهم كل ما يحتاجون إليه.

والصفة الخامسة: أنه أرادهم معصومين[١] من الخطأ، والخطل، والسهو، والزلل.

أما الصفة السادسة: فأنه أجرى على أيدهم المعجزات الباهرة والآيات الظاهرة والحجج الكافية[٢].

ويبيّن سماحة السيّد، بالحجج العقلية، أن الأنبياء من جنس البشر، فلو لم يكونوا غير ذلك لكانوا من الملائكة، أو من الجن، أو من عالم آخر مغاير للعوالم الثلاثة، الملائكة والأنس والجن[٣].

وبناء على ما تقدم، يرى السيّد فضل الله أن الناس بحاجة إلى إمام يخلف الرسول، يكون مؤتمناً على دينهم ودنياهم[٤]، ولما كان الخلق يتظالمون فيما بينهم، فإنهم يحتاجون إلى إمام يقيم العدل فيهم، وينظر في نزاعاتهم، لعجزهم عن حلها من دون الإستعانة بحاكم، أو إمام متأت عن جماع طبائعهم وغلبة شهواتهم وكثرة جهلهم وشدة نزاعاتهم[٥]، مستنداً إلى الآيات التي تدل على أن الناس بحاجة إلى «من يقوم به صلاحه، ويرتفع فساده، ويبين به رشده، ويمحى غيه وضلاله»[٦]، منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾[٧]، ناهيك بأن الأمة

(١) العصمة لغة هي المنع والوقاية.
جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت.٧١١هـ)، لسان العرب، مادة «عصم»، المجلد ١٢، دار صادر، بيروت، لا ت. ص ٤٠٣- ٤٠٨.
أما العصمة في الإصطلاح الكلامي، فهي لطف يفعله الله بالمكلف لا يكون معه داع إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية مع قدرته على ذلك، وقد أجمع العلماء المسلمون على القول بعصمة الأنبياء عن تعمّد الكذب في ما يبلغونه من الرسالات السماوية، واختلفوا بعد ذلك في صدور ما ينافي العصمة منهم على سبيل السهو أو النسيان؛ فذهب بعض أئمة السنة إلى جواز وقوع كل ذنب من الأنبياء، صغيراً كان أو كبيراً حتى الكفر، بينما قال الشيعة بعصمة الأنبياء مطلقاً، قبل البعثة وبعدها.
أحمد صبحي محمود، نظرية الإمامة، ص ١١١-١١٢.
(٢) محمد رضا فضل الله، الإمامة، ص ١٦٤- ١٦٥.
(٣) الإمامة، ص ١٦٥ وما بعدها.
(٤) المصدر نفسه، ص ٤٢.
(٥) المصدر نفسه، ص ٤٣.
(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٧) سورة التوبة، الآية رقم ١١٥.

اتفقت بأجمعها على أن الأرض لا يجوز أن تخلو من إمام قائم بالأمر[١].

ما سبق يشكل نقطة ارتكاز في فكر سماحة السيّد، لوجوب الإمام والحاجة الضرورية إلى معرفته وتنصيبه، فمعرفة الإمام واجبة، فقد نقل عن النبي محمد ﷺ في عاقبة عدم المعرفة هذه، قوله: «من مات لا يعرف إمامه، مات ميتة جاهلية»[٢]، غير أن معرفة أسماء الأئمة عليهم السلام وأشخاصهم، وكونهم أرحاما للنبي ﷺ لا يكفي، بل لا بد من الدفاع عن شرعيتهم وحقّهم في الإمامة[٣].

أما الباب الثاني من الكتاب: فيفرده السيّد للحديث عن «الإمامة منصب إلهي»، ويستهله بعرض عشرين بيتاً مختارة من قصيدة طويلة، نظمها في مدح الإمام المهدي عجل الله فرجه، ذات منحى فلسفي وحكمي، ثم يسهب في شرحها في إطار رؤية متكاملة متماسكة، ترتكز إلى أدّلة عقلية، وشواهد من واقع الحياة نفسها، مقرّراً أن كل ما في الكون من موجودات يحتاج إلى مرشد هاد، وقائد مدبّر يخلف الرسول ﷺ ويقتدي به فيحفظ دينهم ويهديهم إلى طريق الحق والصواب، ويرعى شؤون دنياهم، ويقوّم الزيغ ويصلح الإعوجاج.

ويتوقف سماحته مطولاً عند صفات الإمام، فيذكر[٤] قولاً مسنداً عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: « والإمام المستحق للإمامة له علامات»:

الأولى: أن يعلم أنه معصوم من الذنوب كلها، صغيرها وكبيرها، لا يزلّ في الفتيا، ولا يخطئ في الجواب، ولا يسهو ولا ينسى، ولا يلهو بشيء من أمور الدنيا.

والثانية: أن يكون أعلم الناس بحلاله وحرامه، وضروب أحكامه، وأمره ونهيه، وجميع ما يحتاج إليه الناس، فيحتاج الناس إليه ويستغني عنه.

(١) محمد رضا فضل الله، المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٢) محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، تعليق الميرزا أبو الحسن الشعراني، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ج١، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٣٧٧، الحاشية رقم ٣.

(٣) المازني، شرح أصول الكافية، ج١، ص ٢٦، الحاشية رقم ١٠؛ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، ج ٩٧، مؤسسة العرفان، بيروت، ص ١٢٢، الحاشية رقم ٢٦.

(٤) الامامة، ص ٢٠. انظر أيضا: المجلسي، المرجع نفسه، ج٢٥، ص ١٦٤.

والثالثة: أن يكون من أشجع الناس، لأن فئة المؤمنين التي يرجعون إليها، إن انهزم في الزحف انهزم الناس لانهزامه.

والصفة الرابعة: أن يكون أسخى الناس، وإن بخل أهل الأرض كلهم، لأنه إن استولى الشحّ عليه شحّ بما في يديه من أموال المسلمين».

يسوّغ سماحة السيّد ما تقدم من صفات للإمام بقوله: «أما العصمة من جميع الذنوب فبها يتميز الإمام عن جميع المأمورين الذين هم غير معصومين؛ فلأنه لو لم يكن معصوماً لم يؤمن عليه في ما دخل فيه الناس من موبقات الذنوب المهلكات والشهوات واللذّات، ولو دخل في هذه الأشياء لاحتاج إلى من يقيم عليه الحدود، فيكون إماماً مأموماً، ولا يجوز أن يكون الإمام بهذه الصفة»[١]، كما أن عصمة الإمام في رأي سماحته مستمدّة من كونه مترجماً عن القرآن وأخبار النبي، لهذا وجب أن يكون معصوماً ليجب القبول منه[٢]، مستنداً في ذلك إلى ما نقله المجلسي[٣] عن كتاب «معاني الأخبار»[٤]، حيث ذكر أنه لما كان أكثر الكتاب والسنّة محتمل لوجوه التأويل وجب أن يكون مع ذلك، مخبر صادق معصوم من تعمد الكذب والغلط منبئ عما عنى الباري تعالى ورسوله في القرآن والسنّة على حق ذلك وصدقه، لأن الناس مختلفون في التأويل كل فرقة تميل مع القرآن والسنة إلى مذهبها، ويردف سماحته فيقول: «وأما وجوب كونه أعلم الناس فإنه لو لم يكن عالماً لم يؤمن أن يقلّب الأحكام والحدود وتختلف عليه القضايا المشكلة فلا يجيب عنها ثم يجيب بخلافها، وأما وجوب كونه أشجع الناس لأنه لا يصح أن ينهزم فيبوء بغضب من الله تعالى وهذا لا يصح أن يكون صفة الإمام وأما وجوب كونه أسخى الناس فلأن البخل لا يليق بالإمام»[٥].

(١) محمد رضا فضل الله، الإمامة، ص ٢٠٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٤.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ١٦٤.
(٤) محمد علي بن علي بن بابويه القمي، المعروف بالصدوق(ت. ٣٨١هـ)، معاني الأخبار، تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم - طهران، ١٣٧٨-١٣٧٩هـ، ص ١٣٦.
(٥) الإمامة، المرجع السابق، ص ص ٢٠٥-٢٠٦..

ويذكر سماحته أن الإختيار في الرسالة إنما هو لله لا للأمّة، فكذلك الإمامة لأنها في منزلتها فكما أن العقل حكم بأن الإختيار لله هناك، كذلك يحكم هنا لإتحاد العلّة، «وأن كل زمان لا بد فيه دليل مرشد، وقائد متّبع»[١]، مستنداً إلى الآيات الدالة على ذلك، منها:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٢].

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ ﴾[٣].

ويقرّر سماحته أن صفات الإمام آنفة الذكر تجعل منه بالضرورة أكمل الخلق في جميع الصفات، فهو قائم مقام النبي ﷺ في حفظ الدين ورعاية المسلمين ما يجعلهم أقرب إلى طاعته وأبعد عن معصيته، «وليس في مقدور العباد أن يعرفوا أكملهم حتى ينصبونه إماماً لهم، لأن الكمال النفساني من الأمور الخفيّة الباطنة مستورة بحجب الغيب عنّا؛ فإذا كان الأمر كذلك، وجب على العالم بالغيوب أن يختاره وينصبه إماماً للعالم، وعلماً للعباد، ولو أهمل كان قد ضيّع خلقه، وفي ذلك منافاة للحكمة،...، وهذا من شرائط النبوة، ولا فرق بين النبوة والإمامة، إذ كل منها رياسة عامة في أمر الدين والدنيا»[٤]، والإمام في اعتقاد السيّد فضل الله معيّن في النص لا بالإختيار، كما عند سائر الشيعة الإثني عشرية، وأن النبي محمداً ﷺ قد أوصى لعليّ بن أبي طالب عليه السلام من بعده بالخلافة، بمعنى أن علياً ليس الإمام بطريق الإنتخاب، بل بطريق النص، سنداً إلى الآية الكريمة: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[٥]، وبالتالي فعليّ هو أفضل الخلق بعد الرسول، ومن حقه أن يوصي لمن بعده.

(١) المرجع نفسه، ص ٢٠٦.
(٢) سورة القصص، الآية رقم ٦٨.
(٣) سورة الأحزاب، الآية رقم ٣٦.
(٤) الإمامة، ص ٧٩.
(٥) سورة الشعراء، الآية رقم ٢١٤.

ويسوّغ الشهرستاني إعتقاد الشيعة الإمامية بالقول بالنصّ، ويذكر أن السبب في ذلك إنما يعود إلى عدم جواز مفارقة النبيﷺ للأمة مع ترك أمرهم إلى الإختلاف والفرقة، ما يستوجب وجود شخص موثوق به منصوص عليه بواسطة الرسول للرجوع إليه، وهذا ما صرح به الرسول في المبايعة مثل ما جرى في غدير خم إذ عندما نزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَمِنرَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1]، قال الرسولﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار الآل».

ويذكر الكليني في كتابه «الكافي» نصّاً مهمّاً، فيقول: «أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله سيد النبيين، وأن علياً أمير المؤمنين سيد الوصيِّين»[2]، ويضيف إبن خلدون: أن الشيعة يعتقدون «أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعيّن القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليهم تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وأن علّياً هو الذي عيّنه صلوات الله وسلامه عليه،...»[3]

الإمامة بين الشيعة وبعض الفرق الإسلامية:

ولعل ما تمحورت حوله أفكار السيد فضل الله ومعه أهل الشيعة في مسألة وجوب الإمام والحاجة الضرورية إلى تنصيبه يبدو مناقضاً لنص أورد الشهرستاني، حيث يقول: «قالت النجدات، من الخوارج وجماعة من القدرية: أن الإمامة غير واجبة في الشرع وجوباً، لو امتنعت الأمة عن ذلك استحقوا اللوم والعقاب، بل هي مبنية على معاملات الناس؛ فإن تعادلوا وتعاونوا وتناصروا على البّر والتقوى، واشتغل كل واحد من المكلفين بواجبه وتكليفه استغنوا عن الإمام ومتابعته، فإنّ كل واحد من المجتهدين

(١) سورة المائدة، الآية رقم ٦٧.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني(ت. ٣٢٩هـ)، الكافي (هو أحد الكتب الصحاح الأربعة المعتمدة عند الشيعة الإثني عشرية)، المجلد الأول، باب تربيع القبر ورشه بالماء، مؤسسة النشر الإسلامي، قم- طهران، ١٤١٦هـ.

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت. ٨٠٨هـ)، المقدمة، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٢، ص١٩٧- ١٠٨.

مثل صاحبه في الدين والإسلام والعلم والإجتهاد، والناس كأسنان المشط،...، فمن أين يلزم وجوب الطاعة لمن هو مثله؟»[1].

تعليقاً على هذا النص نرجح أنه يحوي في مضمونه صورة مثالية لمجتمع خال من التناقضات، وتديره رعية تعاونت على البرّ والتقوى، والعدل القائم على المساواة، فيزول الظلم والقلق، ويسود الإطمئنان لدى الفرد والجماعة، بمعنى آخر فإن نصّ الشهرستاني يستبطن ما مفاده أن تحقيق هذه الأمور مجتمعة لا يتم إلا بوجود حاكم أو إمام يتدبر شؤون الرعية ويؤمن لها سعادتها، وعندما تصان حقوق الفرد والأمة تنتفي الحاجة إلى الإمام.

وثمة من أوجب الإمامة بالعقل والشرع معاً، كأبي الحسين الخياط والماوردي من المعتزلة؛ ومن وقف في صف أهل السنّة من العلماء، فأقرّها على رأيها في أمر الوجوب الشرعي، كالمعتزلة عموماً، وبشكل خاص القاضي عبد الجبار الذي بسط رأيه في هذه القضية، ونقض آراء المخالفين فيها، واستهدف اعتراضه الشيعة الإمامية، فيقول :»لو افترضنا مبدأ الوجوب الشيعي للإمامة لوجب أن يكون لها تفسير لهذا الوجوب»، وحسب رأيه فإن ما يبطل دعوى الوجوب هو أن وظيفة الإمامة ذاتها وظيفة شرعية، ويراد بها أمور سمعية، كإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام وما شاكلها؛ فهي عنده تستهدف حماية الدين وتنفيذ أحكامه، وأداة لتحقيق العدل والموازنة بين مصالح الناس في دينهم ودنياهم، غير أن هذا الرأي يصادر مبدأ العصمة ويلغيه، باعتبار أن الحاكم إنسان يجوز عليه الخطأ، وبالتالي إسقاط الوصاية المتوهمة والنظر إلى الحاكم بمقياس بشري محض؛ فمهام الإمام «كلها من مصالح الدنيا»[2]، إذ يجوز على الإمام الخطأ (والكلام للقاضي عبد الجبار) فينبغي أن يكون هناك من ينبّهه ويقوّمه، وهم

(١) محمد بن عبد الكريم الشهرستاني(ت. ٥٤٨)، نهاية الأقدام في علم الكلام، طبعة أكسفورد، ١٩٣٤م، ص ٤٨٠-٤٨١.

(٢) حول هذا حصر مهام الإمام بمصالح الدنيا، انظر: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرازي (ت. ٦٠٦هـ): محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والمتكلمين، مصر، لا ت.، ص ١٧٦.

الأمة وعلماؤها، يبيّنون له موضع الخطأ ويعدلون به إلى الصواب[١].

غير أن الفكر السياسي للمعتزلة أوجب منصب الإمام بهدف قيام سلطة تدير الأمة[٢]. وفي مقابل ذلك فرض على الإمام أن يحيطه عامة الناس بالحراسة والذود عنه ما دام يهتم بشؤون الأمة، «بردّ قويها عن ضعيفها، وجاهلها عن عالمها، وظالمها عن مظلومها، وسفيهها عن حليمها؛ فلولا السائس ضاع المسوس، ولولا الراعي لهلكت الرعية»[٣].

إن جعل المعتزلة الإمام منصباً دنيوياً، حتّم أن يتمّ اختيار الإمام برضى الأمة وجمهورها؛ فالإختيار والبيعة طريق الإمامة وشرعيتها، باعتبارها حكماً شرعياً[٤]، بخلاف الإمامية التي جعلت النص محوراً مركزياً في عقيدتها، وطريقاً لإثبات الإمامة وتنصيب الإمام علي عليه السلام لها وأبنائه من السيدة فاطمة من بعده، ما أدى إلى رفض المعتزلة لمبدأ التعيين بالنص، لأنه يشكل تهديداً لجملة الفكر السياسي الإعتزالي ونظريته في الإختيار، ما جعل شيخ المعتزلة، القاضي عبد الجبار، يتّبع مختلف الوسائل والصياغات النقلية والعقلية لإسقاط «النص الشيعي»[٥].

واستكمالاً لمنظومتهم السياسية، طرح المعتزلة تصوراتهم في تقاليد الإمامة وشروطها، وكيفية قيامها، وطبيعة العقد وصفات عاقديه، ومؤهلاتهم المميزة، حتى يتسنى للإمام أن يكتسب صفة الشرعية كحاكم أعلى للدولة، ويتسلم مقاليد السلطة وإدارتها بمعرفته[٦].

---

(١) القاضي عبد الجبار الأسد آبادي(ت. ٤١٥هـ)، المغني في أبواب التوحيد والعدل تحقيق الدكتور محمود محمد قاسم، ج ١٥، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) ثمة من المعتزلة من أوجب الإمامة عقلاً وهم قلة، ولكن ايجابها على الخلق والناس لا على الخالق، لأن أمرها دنيوي لا ديني، أي على خلاف مفهوم الشيعة للإمامة.

عز الدين عبد الحفيظ،ابن أبي الحديد(ت. ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٣٠٨.

(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر البصري، المعروف بالجاحظ (ت. ٢٥٥هـ)، رسائل الجاحظ، ج١، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، لا ت.، ص ٣١.

(٤) القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٧٥٤-٧٥٥.

(٥) عبد الستار الراوي، العقل والحرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤١٤- ٤١٦.

(٦) القاضي عبد الجبار، المغني، القسم الأول (الإمامة)، ص ٣٥١ وما بعدها.

خاتمة:

تستدعي التباينات آنفة الذكر حول موضوعة الإمامة، بين الشيعة وبعض الفرق الإسلامية الأخرى، قراءة متأنية في هذه المسألة الخلافية المزمنة التي ما انفكّت تسهم في تكريس التباعد حيناً، والتنابذ أحياناً بين أطياف المسلمين؛ فالظروف الملتبسة التي رافقت مبايعة أبي بكر بالخلافة، أسفرت عن اختلاف المسلمين في الحديث عنها والإجتهاد فيها. فقد كانت البيعة لأبي بكر إحدى فلتات التاريخ، لم تأخذ بعدها الجدي إلا مع تحولّها إلى أمر واقع؛ فحدث السقيفة كان في حد ذاته أقرب إلى الإنقلاب السياسي منه إلى إجراء إنتخابي، بخلاف ما تزعم الفرق الإسلامية القائلة بشرعية إختيار الإمام لا بأحقية تعيينه بالنص؛ وأن بيعة الخلافة لأبي بكر عند هذه الفرق جاءت متوافقة ومبدأ الشورى حسب المؤشرات الواردة في التنزيل ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

وتعليقاً على ما تقدم نقول: إن الملابسات التي رافقت البيعة والتطورات التي أسفرت عنها، لم تكن متلائمة وتقرير أمر مصيري بحجم خلافة الرسول ﷺ، حيث جرى عمداً تجاهل رأي أهل البيت عليهم السلام ومعهم فئة من أوثق الصحابة ممن لهم سبق الفضل في الإسلام، وكذلك الممارسات التي استهدفت الأنصار، أصحاب المبادرة إلى السقيفة، احتواء وتطويعاً، ما يدلّ على الخلل الذي اعترى مبدأ الشورى، والنيل من الإجماع على البيعة. وقد أدى ذلك إلى جدال بين المسلمين حول أحقية الخلافة، كان من تداعياته اللافتة ما سُمّي بـ«الفتنة الكبرى» المتمثلة بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، واهتزاز صورة الخلافة نفسها[2].

فالإمامة عند الشيعة تختلف عما هي عليه عند أهل السنّة، كما بيناه في ما سبق من هذه الدراسة، وأن هذا الإختلاف يكمن أساساً في كون الإمام الخليفة في مذاهب أهل

(١) سورة الشورى، الآية رقم ٣٨.

(٢) إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٩-٢٠.

السنّة، هو نائب عن صاحب الشريعة في حفظ الدين دون أن يكون له سلطة تشريعية إلا تفسيراً لأمر أو اجتهاد في ما ليس فيه نص، أما عند الشيعة فالإمامة قاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفالها وتفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه إختيار الإمام لها، لأن الإمام وارث لعلوم النبي ومؤتمن على وظيفة روحية رئيسة تخوّله حقاً دينياً بشرح رسالة الإسلام وتوضيحها، وهو أمر لا يستطيع النهوض به إلا أهل بيت النبي لكونهم ورثة علومه.

لذلك فإن الإمام عند الشيعة ليس شخصاً عادياً بل هو فوق الناس لأنه معصوم من الخطأ، وإن الإعتراف به والطاعة له جزء من الإيمان[1]، وبالتالي فليس لأحد أن يخطّئ الإمام بل يجب على الناس أن يصدّقوا أن كل ما يفعله إنما هو خير لا شر فيه، فعند الإمام من العلم ما لا قبل لأحد معرفته، وأن الله أفاض عليه بنور المعرفة، وأشرق عليه بنورها، فالنبي ﷺ علّم لعليّ عليه السلام نوعين من العلم: علّمه باطن القرآن وظاهره، وأطلعه على أسرار الكون وخفايا الغيبيات، وكل إمام ورّث هذه الذخيرة العلمية لمن بعده[2].

وبعد لقد نجح الفقيه السيد محمد رضا فضل الله إلى حدٍّ بعيد في تحديد إشكالية بحثه، ووضع لها فرضيات ملائمة أجاد في تفحّصها ودراستها معتمداً في ذلك منهجاً علمياً قوامه استقراء الآيات القرآنية، والأحاديث الجياد التي تحظى بثقة العلماء المسلمين من سنّة وشيعة، واستدلّ بها لدعم مفهومه للإمامة وأحقية أهل البيت في الخلافة فجاءت دراسته على صورة بناء مترابط ومتماسك متوسّلاً الحجّة والقرينة في ما ذهب إليه بأسلوب علمي رصين فقدّم بذلك جديداً في موضوع خلافي شائك وملتبس، ما جعل كتابه في منزلة مقدّرة في بابه، ومرجعاً لا غنى عنه للباحثين والمهتمين بدراسة مسألة الإمامة في الإسلام.

(1) Cf.: Sami Nasib Makarem, The Political Doctrine of the Ismailis(The Imamate), Caravan Books, N.Y., 1977.

(٢) من المفيد في هذا المجال مراجعة: محمد أبو زهرة، إبن تيمية، حياته وعصره وآراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، لا ت، ص ١٧٢.

الشيخ حسن بغدادي[1]

محطات مضيئة في حياة السيد محمد رضا فضل اللّه

إنّ عرض وتوثيق سيرة هؤلاء الأعلام، تُمثل لنا قيمة حضارية وتجربة إجتماعية، لا يمكن الإستغناء عنها، فهي ليست من باب إظهار المكرُمات، بقدر ما هي ثروة معرفية، يمكن إسقاطها والإستفادة منها في محطات معاصرة، تتشابه مع الماضي، وهذا ما دعا بعض الشخصيات العلمائية إلى كتابة تجاربهم وسيرتهم الخاصة، بأيديهم، كي تُكتب بحيثياتها وتفاصيلها التي يكون صاحبها أكثر إدراكاً لها من غيره، كالشهيد الثاني، والسيد محسن الأمين، والسيد عبد الحسين شرف الدين، والشيخ حبيب آل إبراهيم وغيرهم.

السيد محمد رضا، هو إحدى الشخصيات الأساسية المربية والمستنهضة في القرن الرابع عشر هجري، وأنا إذ أشكر الأخ الدكتور معروف محمد تقي فضل اللّه، والمسدّد له الأخ النائب الدكتور السيد حسن فضل اللّه، من العمل على جمع ما أمكن من أثاره العلمية والأدبية، وما تحتاجه هذه من صبر ومعاناة.

---

(١) عضو المجلس المركزي في حزب اللّه، المشرف على أعمال المؤتمر

ونحن أردنا من خلال هذا الكتاب الذي ضمّ أبحاث المؤتمر الفكري الذي نظمته جمعية الإمام الصادق عليه السلام لإحياء التراث العلمائي، حول شخصية العلامة السيد محمد رضا فضل الله، أن يكون مدخلاً للتعرف على شخصية هذا العالم الفاضل، وعلى فهم مطالبه العلمية والأدبية.

ولادته ونسبه:

ولد العلامة السيد محمد رضا فضل الله في قرية (عيناثا) من جبل عامل[1] سنة ١٨٦٤م/١٢٨١هـ، فيكون أكبر من السيد محسن الأمين إما بسنة أو بثلاث سنوات، على رواية.

نسبه الشريف ينتهي إلى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، و(آل فضل الله) سادة حسنيون، ولا شبهة في نسبهم، وهذا ما ذهب إليه أهل التراجم ومنهم السيد الأمين[2].

(١) عيناثا:من قرى جبل عامل، تتبع لقضاء (بنت جبيل)، وترتفع حوالي ٧٠٠م عن سطح البحر، فيها مجلس بلدي أنشئ سنة ١٩٦٢م، من علمائها: الشيخ ظهير الدين بن علي بن زين العابدين بن الحسام العيناثي الذي تتلمذ عليه الشيخ ناصر بن إبراهيم البويهي (كان مقيماً في عيناثا)، العلامة الأديب السيد محيي الدين فضل الله، السيد نجيب فضل الله (ت ١٩٠٠م) إبن السيد محيي الدين، السيد صدر الدين فضل الله، السيد محمد حسن فضل الله، السيد محمد سعيد فضل الله، السيد عبد الرؤوف فضل الله، الشيخ أحمد بن يوسف العينثاني (من تلاميذ الشيخ محمد بن الشيخ حسن صاحب المعالم نجل الشهيد الثاني)، الشيخ أحمد بن خاتون العيناثي (معاصر للمحقق الثاني)، الشيخ أحمد بن خاتون العيناثي (معاصر للشيخ حسن صاحب المعالم)، الشيخ أحمد بن علي العيناثي (من المشايخ الأجلاء، يروي عن جعفر بن الحسام العاملي وعنه محمد بن خاتون العاملي)، الشيخ أحمد بن محمد بن خاتون العيناثي (معاصر للشهيد الثاني)، الشيخ أحمد بن نعمة الله بن خاتون العيناثي (معاصر للشهيد الثاني وله كتاب مقتل الحسين«ع»)، جعفر بن الحسام العيناثي من المشايخ الأجلّاء، جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن نعمة الله بن خاتون المعاصر لصاحب الوسائل، الشيخ حسن بن علي الظهيري العيناثي المعاصر لصاحب الوسائل (سكن النجف ومات بأصفهان)، الشيخ حسن بن علي بن خاتون العيناثي المعاصر لصاحب الوسائل، الشيخ حسين بن جمال الدين بن يوسف بن خاتون العيناثي (المعاصر لصاحب الوسائل)، الشيخ حسين بن الحسن الظهيري العيناثي (أحد مشايخ صاحب الوسائل، سكن جباع ومات فيها)، الشيخ حسين بن شرف العيناثي (يروي عن الشهيد الثاني)، الشيخ علي بن أحمد بن نعمة بن خاتون، محمد بن الحسام كان من المشايخ الأجلاء، الشيخ محمد بن خاتون المعاصر لصاحب الوسائل (يروي عن المحقق الثاني)، الشيخ محيي الدين بن خاتون معاصر لصاحب الوسائل، الشيخ نعمة الله بن أحمد بن محمد بن خاتون العاملي العيناثي من أجلاء العلماء وتلامذة المحقق الكركي، الشيخ يوسف بن أحمد نعمة الله بن خاتون المعاصر لصاحب الوسائل.

السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٢٦٩.

الشيخ سليمان ظاهر، معجم قرى جبل عامل ج ٢ ص ١١٦.

الشيخ إبراهيم سليمان، بلدان جبل عامل ص ٣١٧.

(٢) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١٤، ص٦٠.

أصل العائلة من مكة المكرمة، فجدّهم الأعلى الشريف حسن[١]، قدم من مكة المكرمة بداعي العلاج، وسكن في (عيناثا)، وبقي فيها، وكانت تربطه علاقة وثيقة بعلماء (آل خاتون) عندما كانوا يذهبون إلى الحج والعمرة، وفي ذلك الزمان كانت الظروف تختلف، والحج لم يكن أياماً معدودات كما اليوم، بل كان يبقى العلماء شهوراً أو ربما سنة، يُدرّسونَ ويُصنّفون، ويلتقون بعلماء وأعيان تلك البلاد، وبالذين هم من خارج مكة، وقد قدموا إليها لنفس الغرض.

لم تكن هذه العائلة الكريمة الوحيدة التي قدمت إلى جبل عامل، فهناك العديد ممّن قدموا وبقيت ذراريهم، فـ (آل يحيى) وهم اليوم يعرفون بـ (آل صادق)، جدّهم الأعلى قدم من مكة المكرمة[٢].

والشيخ حبيب البغدادي أصله من بني (شيبه)[٣]، والشيخ إبراهيم البلاغي[٤]، قدم من العراق، والسيد إبراهيم الحسيني[٥] الجدّ الأعلى لـ (آل الأمين)، قدم من مدينة الحلة بالعراق، ولم يكن حضور هؤلاء إلى جبل عامل بداعٍ واحد، فبعضهم أتى للدرس والتحصيل كالشيخ ناصر إبراهيم البويهي[٦]، وهناك من جاء بداعي العلاج كالشريف

(١) الشريف حسن: من الأجلاء الفضلاء.

(٢) يوجد إجماع لدى أصحاب التراجم، أن أصل العائلة يعود إلى مكة المكرمة، وإلى قبيلة (بني مخزوم).

(٣) الشيخ حبيب بن طالب بن علي بن أحمد بن جواد البغدادي الكاظمي مسكناً الشيبي المكي أصلاً نزيل جبل عامل، شاعر مجيد متفنن خفيف الروح، أصله من العراق من بلد الكاظمين عليهما السلام، وكان حياً سنة ١٢٦٩هـ.
السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٧، ص ٢٦٢.
الشيخ آغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ج١٠، ص٢٩٢.

(٤) الشيخ إبراهيم بن حسين بن عباس بن حسن بن عباس بن محمد علي البلاغي النجفي العاملي المتوفى سنة ١٢٤٦هـ، وهو جدّ البلاغيين العامليين جميعهم، كان فقيهاً متبحراً وأديباً شاعر، قليل النظم، من تلاميذ الشيخ جعفر كاشف الغطاء.
السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة ج ٣ ص ٧٧.
الشيخ آغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ج١٠، ص١٦.

(٥) السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل، ص ٨.

(٦) الشيخ المحقق ناصر بن إبراهيم البويهي الأصل، الإحسائي المنشأ العاملي الخاتمة، من أعقاب ملوك بني بويه ملوك العراقيين والعجم، وهم مشهورون. كان فاضلاً محققاً مدققاً أديباً وشاعراً فقيهاً، له حواش كثيرة على كتب الفقه والأصول وغيرها، هاجر إلى جبل عامل في زمان شبابه، وسكن (عيناثا) حتى مات بها، واشتغل بطلب العلم، وكان من تلامذة الشيخ ظهير الدين العاملي.
السيد حسن الصدر، تكملة أمل الآمل، ص٤١٢.
الشيخ آغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ج٦، ص١٤٣.

حسن، وآخرون طلبهم الناس ليكونوا علماء في قراهم، كالسيد إبراهيم الحسيني والشيخ إبراهيم البلاغي، والشيخ عبد النبي الكاظمي نزيل (جويا)[1] من جبل عامل.

وعليه فالسيد محمد رضا أصله من مكة المكرمة، وينتسب إلى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، ونسبه على الشكل الآتي: السيد محمد رضا بن رضا بن نصر الله بن محمد الملقب بسلطان العلماء بن علي بن يوسف بن محمد بن فضل الله بن محمد بن يوسف بن بدر الدين حسن بن أبي الحسن علي بن أبي علي محمد بن أبي محمد جعفر بن أبي الحسن جمال الدين يوسف بن شمس الدين محمد بن أبي محمد الحسن بن أبي الحسن عيسى بن زين الدين فاضل بن جمال الدين يحيى بن شرف الدين جوبان بن جمال الدين الحسن بن أبي الحسن ذياب بن أبي ذياب عبد الله بن أبي عبد الله بن أبي عبد الله محمد بن أبي محمد يحيى بن شمس الدين محمد بن أبي محمد الشجاع الكريم داود ابن الأمير إدريس بن أبي الحسين داود بن أحمد المستور بن الصالح ويلقب بالرضي بن عبد الله بن أبي الحسن موسى بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الإمام السبط المنتجب أبي محمد الحسن ابن أبي الحسن الإمام أبي الائمة ليث بني غالب ومظهر العجائب ومفرق الكتائب علي بن أبي طالب عليه السلام.

نشأته ودراسته:

نشأ السيد محمد رضا في قرية (عيناثا)، وقرأ على فضلائها، بعدما تعلّم القراءة والكتابة، وحاز على عناية خاصة من والده السيد رضا، الذي لم يكن من أهل العلم، ولكن كانت له نظرة خاصة بولده الذي سيكون له شأن في يوم من الأيام.

(١) الشيخ عبد النبي الكاظمي نزيل جويا (صاحب تكملة نقد الرجال) المتوفى سنة ١٢٥٦هـ في بلدة (جويا) من جبل عامل، كان عالماً فاضلاً محققاً مدققاً متبحراً خبيراً بالأصول والفقه والحديث والرجال له تصانيف حسنة مفيدة محدث متكلّم عارف بالرجال. ولد سنة ١١٩٨هـ بمدينة الكاظمية المقدسة، ودرس على كل من: الشيخ خليل القزويني المعروف بزركش، الشيخ أسد الله التستري الكاظمي، الشيخ محمد رضا شبر، الشيخ أحمد الأحسائي، السيد عبد الله شبّر.
السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١٢، ص١٤٦.
الشيخ آغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ج١١، ص٨٠٠.

جدّه لأبيه السيد نصر الله[١] أعقب أربعة أولاد، منهم: السيد رضا (والد السيد محمد رضا)، والسيد محيي الدين[٢] (والد السيد نجيب)، وكان السيد محيي الدين من أعلام جبل عامل، وله علاقة مميزة بالشيخ مرتضى الأنصاري[٣]، وكان يُرجع الناس إليه في جبل عامل بالفتيا وفصل الخصومات.

بعدما أنهى السيد محمد رضا المبادئ العامة للعلوم العربية، وبعض المقدمات في (عيناثا)، انتقل إلى بلدة (حناويه)، التي سكنها العلامة الشيخ محمد علي عز الدين[٤] بعدما عاد من العراق سنة ١٢٦٦هـ، وطلبه أهالي (حناويه)، وشيّد فيها مدرسة، اجتمع عليه الطلاب من مختلف المناطق، وقرأوا عليه واستفادوا من علمه وأدبه وتجربته في كيفية الجمع بين التبليغ الديني وتدريس الطلاب والتصنيف، واستمروا معه حتى سنة ١٢٩٨هـ، إلى أن عاد من النجف الأشرف العلامة الشيخ موسى أمين شرارة، على إثر إصابته بمرض صدري، إقترح عليه الأطباء مغادرة النجف والتوجه فوراً إلى بلاده، لكون هوائه يصلح لمعالجة الأمراض الصدرية، وبالفعل بقي الشيخ موسى في بنت جبيل ست سنوات، وارتحل سنة ١٣٠٤هـ، ولكنه استطاع أن يؤسّس لمسار علمي وأدبي في جبل عامل خلال هذه الست سنوات، فكان عالماً كبيراً ومصلحاً ومربياً، وعَبرّ عن

(١) السيد نصر الله كان حياً سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م، وكان من العلماء المعروفين بنشاطهم في جبل عامل، ومعاصراً لمرحلة إعادة الحياة العلمية في جبل عامل بعد نكبتها على يد الجزار.

(٢) السيد محيي الدين بن فضل الله الحسني العاملي العيناثي، كان من مشاهير العلماء في عصره، قرأ في جبل عامل على الشيخ مهدي مغنية في مدرسة (طيردبا)، وتزوج من كريمة الشيخ مهدي، ثم هاجر إلى العراق لطلب العلم، وكان على تواصل مع الشيخ مرتضى الأنصاري، الذي أوكل إليه مهمة الفتيا وحلّ الخصومات.

(٣) الشيخ مرتضى الأنصاري: ولد سنة ١٢١٤هـ، وكان من أعلام الطائفة وأحد كبار أساتذة الفقه والأصول، انتهت إليه رياسة الإمامية في العلم والعمل والورع والإجتهاد، توفي في النجف الأشرف سنة ١٢٨١هـ، ودفن على اليسار من باب القبله من الصحن الشريف، وكانت مرجعيته بإشارة من الشيخ محمد حسن النجفي (صاحب الجواهر)، وهذه الإشارة منه رحمه الله تنمّ عن مدى الوعي والإدراك وتحمّل المسؤولية، والنظر إلى البعيد.

(٤) الشيخ محمد علي عزالدين: من علماء جبل عامل في القرن الثالث عشر هجري، ولد في (كفرا) في جبل عامل، وأسس مدرسة دينية في (حناويه)، وكانت إحدى مدارس النهضة العلمية الثانية، وجمعت الكثير من الطلاب، وكان عالماً فقيهاً زاهداً عابداً ورعاً ثقة مؤلفاً مصنفاً أديباً شاعراً ظريفاً حسن الأخلاق كريم الطباع لم يوجد له نظير في عصره في جبل عامل في المواظبة على المطالعة والتدريس والتأليف والتصنيف والدعاء والعبادة وتلاوة القرآن، توفي سنة ١٣٠١هـ.
السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١٤، ص٢٨٧.
الشيخ موسى عز الدين، التذكرة، ص٥٧.

مرحلته السيد الأمين: « فإن سوق العلم والأدب قام في جبل عامل بعهد الشيخ موسى أمين شرارة»[1].

وبما أنّ صيته العلمي قد سبقه إلى جبل عامل، وعلى قاعدة لكل جديد بهجة، التحق طلاب مدرسة حناويه بمدرسة (بنت جبيل)، واستمروا فيها حتى رحيل الشيخ موسى سنة ١٣٠٤هـ.

في (بنت جبيل)، لم يكن الطلاب بمستوى واحد، وإنما كانوا يختلفون بالعمر وبالفضيلة العلمية، فكان السيد محمد رضا والشيخ حسين مغنية، والسيد محسن الأمين، والشيخ محمد خليل دبوق وغيرهم، يدرسون المقدمات على السيد نجيب فضل الله، وبتقديري استفاد الطلاب كثيراً من تلك الحقبة الزمنية، فقد شاهدوا العلامة الشيخ موسى شرارة، كيف يهتم بالأدب والإصلاح، فهو الذي دعا إلى إصلاح المنبر الحسيني، كما عمل على التقريب بين المذاهب، وهذا ما انعكس على شخصية الطلاب، فقد عَلقت في أذانهم فكرة الإصلاح، وهنا نجد السيد محمد رضا فضل الله، كيف حمل الفكر الإصلاحي في مختلف العناوين، وإن كان أسلوبه يختلف عن السيد محسن الأمين، من حيث الشكل، مضافاً للمشروع التربوي الذي هو مرتبط بتربية النفس وصفائها، فكان الطلاب يتأثرون بالشيخ موسى شرارة، كما كانوا يستفيدون من السيد نجيب فضل الله. ومن بعض الحوادث ذات الصلة بالمنهج التربوي، التي كانت تقع أمامهم، على سبيل المثال: ذات يوم استأجر الطلاب بيتاً بعيداً عن بيوت القرية في (بنت جبيل)، مما اضطروا لأن يستأجروا من يجلب لهم الماء للشرب من (العين)، فأشاروا على السيد نجيب فضل الله، أنَّ رجلاً من (آل قليط)، عنده بنت تعمل بالأجرة، فذهب إليه السيد نجيب ومعه الطلاب، وبعدما سلّموا عليه وخطب به السيد نجيب، وذكّره بالآخرة، وجاء له بالروايات التي تحثّ على خدمة المؤمنين،

(١) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١٥، ص٥٣.

وبالخصوص طلاب العلوم الدينية، وعندما انتهى السيد من خطابه، قال له الرجل: «ما عندي بنات للأجار»، وعندما أعاد عليه السيد الكلام والموعظة وزاد من الروايات، التفت إليه الرجل، وقال: «شايفني طبل حتى تنفخني، قلتلك ما عندي بنات للأجار»[1]، وهنا نلاحظ كيف أنّ الشيخ محمد خليل دبوق، والذي كان أكبر منهم سناً بعدّة سنوات، قد بادر بجلب جرّة الماء من العين، وتكرّر هذا العمل منه كل يوم. هذا النوع من تربية النفس والسلوك تأثر به الطلاب، وبقى عالقاً في أذهانهم، وانعكس على شخصيتهم، وظهر في سلوكهم، منذ لحظة وصولهم إلى النجف الأشرف، فالسيد محمد رضا فضل الله في النجف الأشرف، أصبح من كبار العارفين والمربين، وكتابه السمكيّة، يكشف عن مدى الروحية العالية التي وصل إليها، وكيف صار من الموجّهين لطلاب العلوم الدينية، كما حجز لنفسه مكانةَ أن يكون ناصحاً للعلماء.

وفي سنة ١٣٠٤هـ، التحق الشيخ موسى شرارة بالرفيق الأعلى، فتفرّق الطلاب، وعادوا إلى بلادهم، وجاء من يقترح على السيد يوسف شرف الدين[2] أن يشيّد مدرسة في قرية (طورا)، لكونها منطقة تقع في وسط البلاد، والسيد يوسف كان قد اجتمع عليه الطلاب في قرية (شحور)، قبل أن ينتقل إلى (طورا).

فتحت المدرسة أبوابها سنة ١٣٠٥هـ، واجتمع فيها العديد من الطلاب، ومنهم السيد محمد رضا فضل الله، وعادت وأغلقت أبوابها سنة ١٣٠٨هـ ، لأسباب لا نعرفها، ولعلّ واحداً منها: ذهنية السيد يوسف شرف الدين، حيث كان يعتقد بضرورة ذهاب الطلاب إلى النجف الأشرف، بعد نهاية مرحلة المقدمات.

قرار الذهاب إلى النجف، كان سنة ١٣٠٨هـ، ولعلّ المحفز لجمع من الطلاب على الذهاب إلى النجف، هو السيد محمد رضا، فخرج سوياً مع السيد محسن الأمين،

(١) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١٥، ص٣١٣.

(٢) اقترح الشيخ محمد مهدي مغنية على السيد يوسف شرف الدين، والد السيد عبد الحسين شرف الدين، وكان السيد يسكن في (شحور) ومات فيها سنة ١٣٣٤.

والشيخ حسين مغنية وآخرين، متجاوزين مشقة الطريق والحياة الصعبة في العراق، فالفقر المدقع والمناخ السيء والبعد عن الأوطان، هذه الأمور لم يكن من السهل تجاوزها لولا الإخلاص والشوق إلى العلم ومجاورة الإمام علي عليه السلام، فمقوّمات الحياة سيئة بشكل فظيع، ولا يصبر عليها إلا من بات لا يشعر بمرارتها، فحلاوة المجاورة للإمام علي عليه السلام، ولذة الحصول على المراتب العلمية،لا يبقَ معهما مجال للشعور بالآلام وضنك العيش، وخصوصاً أنهم غير مجبرين على ذلك، ولا هم مطرودون من بلادهم وبإمكانهم البقاء في بلادهم الجميلة، ذات المناخ الرائع، والعيش مع الأهل، لولا ذلك الدافع الذي أشرنا إليه. إلا أنّ الحنين إلى الأهل، وإلى جبل عامل، لم ينقطع، رغم ذلك العشق لمرقد مولانا الإمام علي عليه السلام، وللحوزة العلمية يبقى الحب والشوق لتلك البلاد، التي طالما أطلق العلماء قصائدهم، وهم في العراق تعبيراً عن ذلك الشوق، ومنهم علامتنا السيد محمد رضا الذي هزّه الشوق وهو يُشاهد تلك القافلة تسير نحو بلاد الشام، فأنشأ قائلاً:

أَقولُ لِركبِ الشّامِ والرَّكبُ سَانِحُ ... ولم تثنه عفرُ الظباءِ السوانحِ(١)

وقد أطلقوها مُدلِجينَ طَلائِحاً ... تَهادَى بها الأغوارُ وهي طَلائحُ(٢)

أَميلوُا رِقَابَ العيسَ إنْ جُزتمُ اللوىَ ... وَضمَتّكُمْ عِندَ الأَصيلِ الصَحاصِحُ(٣)

وأَورَدتُمُوهَا أَرضَ جِيرُون(٤) فالنقا ... ولاحَ لَهَا من غربِ جِيرُونَ لائحُ

إلىَ وُهدةٍ في سَفحِ تَلٍّ سَمَا به ... إلى الجوِّ طَرْفٌ للكواكبِ طَامِحُ

ألمّوا عليهَا سَائِلينَ فَهلْ سَخَتْ ... بِنَا(٥) بعدما بِنَّا النُّفوسُ الشَّحائحُ

(١) عفر الظباء: نوع من الغزلان. السوانح: سنح الظبي، مرّ من اليمين إلى اليسار.

(٢) الإدلاج: السير في الليل. / تهادى هي تتهادى نحذف التاء للوزن. / طلائح الأولى، ج. طليحة: هزيلة والثانية بمعنى المتعبة من السير.

(٣) الصحاصح: الصحارى.

(٤) أرض جيرون، كانت تطلق على دمشق قديماً، ويقال أن جيرون منطقة من أسبانيا، قاتل أهلها نابليون، وعندما شاركوا في الحملات الصليبية، أطلقوا على منطقة من الضنية من الشمال اللبناني هذا الاسم عليها لتشابههما.

(٥) بنّا: فارقنا وابتعدنا، وفيه تعريض ببعض أصحابه الذين تخلوا عنه.

ملاحظة: اعتمدت في هذا البحث على نقل بعض القصائد والرسائل، كما جاء في كتاب «مجموع الرسائل والقصائد للسيد محمد رضا فضل الله، التي جمعها وشرح بعض مفرداتها الدكتور معروف محمد تقي فضل الله، كي لا نقع بالتكرار.

وهلْ شعبُ ذاكَ الحيّ بَاقٍ وصفْوهُ زلال أم الأيام فيه بَوارِحُ؟
وهلْ أَهلُهُ فيهمْ على قُربِ دَارِهمْ نَشاوَى وكأسُ اللهوِ باللهوِ طَافِحُ؟
يجرُّونفضل الرَّيط[1] لم يَبسطُوا الخُطَى وزَندهُمُ في نَدوةِ الحيّ قادِحُ
أقامُوا بذاك الشّعبْ ثَملىَ جُفُونُهُمْ وحسبِي مِنهُمْ ما تجنَّ[2] الجوانِحُ
جَوانِحُهمْ مَبلُولَة بِسرُورِهِمْ ومنيَ بُلَّتْ بالهموم الجَوارحُ
إذَا رحتُ أُغضي الجَفْنَ مِنهُمْ على القَذَىَ تنِمُّ بما أُغضي الجفُونُ السّوافِحُ
لَئِنْ كَانَ ذَا مَزحَاً ولا كَانَ غَيرهُ فَيَا ربّمَا قد جدَّ بالأمرِ مَازِحُ

درس السيد فضل الله في النجف الأشرف على فضلاء وأساطين الحوزة العلمية، فحضر بحث الخارج على فقهاء تلك المرحلة، منهم: الشيخ محمد كاظم الخراساني (صاحب كفاية الأصول)[3]، والشيخ محمد طه نجف[4]، والشيخ ميرزا حسين

(١) الريط: كل ثوب يشبه الملحفة.

(٢) تجنّ: تخفي.

(٣) الشيخ محمد كاظم الخراساني (صاحب كفاية الأصول) الشهير بالآخوند المتوفى سنة ١٣٢٩هـ، من كبار أساتذة الجامعة النجفية، انتهت إليه زعامة الحوزة في كل مكان وصارت الرحلة إليه من أقطار الأرض وعمر مجلسه بمئات من العلماء والمجتهدين. قاد الحركة الدستورية في إيران التي دعت إلى تقييد الشاه بمجلس نيابي. ولد في مشهد خراسان، وقرأ المبادئ وأكمل العلوم العربية والمنطق فيها ثم انتقل بعدها إلى طهران وأقام فيها ستة أشهر، درس خلالها بعض العلوم الفلسفية وفي عام ١٢٧٨هـ ترك طهران وتوجه إلى النجف ودرس على الشيخ مرتضى الأنصاري والسيد محمد حسن الشيرازي والشيخ راضي النجفي. وله من المصنفات: الإجازة، الإجتهاد والتقليد، التكملة في تلخيص التبصرة، حاشية الأسفار، كفاية الأصول.
الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب، ج١، ص٣٩.
الشيخ محمد حرز الدين،معارف الرجال، ج٢، ٣٢٣.

(٤) الشيخ محمد طه بن الشيخ مهدي بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ محمد بن الحاج نجف الحكم آبادي التبريزي النجفي مرجع كبير من مشاهير علماء عصره، ولد سنة ١٢٤١هـ،وتوفي يوم الأحد في ١٣ شوال ١٣٢٣هـ، تتلمذ في بادئ أمره على والده ثم درس على الشيخ عبد الرضا الطفيلي وعلى خاله الشيخ جواد نجف والشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ محسن خنفر وغيرهم من العلماء والأساطين، رجع إليه الناس في التقليد بعد وفاة الحجتين الشيخ محمد حسين الكاظمي والسيد المجدد الشيرازي، وقد ترك وراءه الكثير من المصنفات منها:(إتقان المقال في علم الرجال) (احياء الموات في أسماء الرواة) (غناء المخلصين) وغيرها.
الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف ج٣ ص١٢٦٩.
الشيخ جعفر باقر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ج٣، ص ٤٣١.

الخليلي[1] والشيخ محمد الشربياني[2].

ولم نعثر على إجازات بالإجتهاد، لأي من هؤلاء المراجع، بحق السيد محمد رضا، مع العلم أنّ أقرانه بالدراسة، قد حازوا على هذه الشهادات، ممّا يُدلّل على أنّ شهادات قد صدرت، ولكنها ضاعت، أو تلفت، كما تلف الكثير من تراث علماء جبل عامل، بسبب الضغوط العثمانية والفرنسية التي لم تراعِ حرمة لأهل العلم ولا لمصنفاتهم، وعلى هذا الكثير من الشواهد، والذي يدعونا إلى القول باجتهاده، بعض الشهادت التي قيلت بحقه، إضافة إلى ما قاله، هو ـ رحمة الله ـ بحق الآخرين، وما لها من دلالة على مكانته العلمية، حيث لا تصدر إلا عن مقامات شامخة، كما سنبيّن، مع ما وصل إلينا من بعض إنجازاته العلمية، بمجموعها تشكل ظناً معتبراً، أنّ الإجازات باجتهاده، قد ضاعت، كما ضاع قسم من تراثه، وإلاّ كيف نُفسّر بحثه في الأصول؟ وإن وجد ناقصاً؟!

من هذه الأقوال التي صدرت بحقه رحمه الله:

السيد الصدر في التكملة، قال: «السيد محمد رضا من الأفاضل، ذو علم وأدب وشعر ونثر وقلم حسن، أحد حسنات هذا العصر»[3].

(١) الشيخ ميرزا حسين الخليلي المتوفى سنة ١٣٢٦هـ، انتهت إليه رئاسة الإمامية في عصره، وكان أفقه أهل زمانه وهو أحد أركان النهضة الإيرانية، كان فقيهاً أصولياً مجتهداً، وأستاذاً في الفقه والأصول عابداً زاهداً. وكان عميم النفع سخياً يتفقد الفقراء في بيوتهم ابتداءً منه وكان مجلس بحثه يزدحم بالعلماء والفضلاء الأعلام، وكان له الباع الطويل في التدريس والفن الجديد في التنميق الذي امتاز به عن غيره في الفقه والأصول.له من المصنفات: كتاب في الإجازة ـ كتاب في الغصب ـ شرح نجاة العباد. الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب في النجف ج٢ ص٥١٨.
الشيخ جعفر باقر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ج٢، ص٢٢٦.
الشيخ آغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ج١٤، ص٥٧٣.

(٢) الشيخ محمد الشربياني المتوفى سنة ١٣٢٢هـ، من كبار المجتهدين والفقهاء، ولد سنة ١٢٤٥هـ، ثم هاجر إلى النجف الأشرف في سنة ١٢٧٢هـ، وتتلمذ على الشيخ مرتضى الأنصاري، والسيد حسين الكوه كمري، وللشيخ محمد الشربياني في النجف الأشرف، مدرسة علمية، تعرف بمدرسة الشربياني، وهي من المدارس الشهيرة، لما ضمت من الفضلاء والعلماء البارزين في الحوزة العلمية، وتقع في محلة الحويش في آخر الشارع من مدرسة السيد محمد كاظم اليزدي، والمعروف سابقاً (بشارع الهنود). وفي المدرسة مكتبة فيها من نوادر المخطوطات ونفائس المطبوعات، وله من المصنفات: حاشية فرائد الأصول، حاشية المكاسب، شرح المعلقات السبع، كتاب في أصول الفقه، رسالة عملية، كتاب المتاجر، كتاب الصلاة.
الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف خلال ألف عام، ج٢، ص٧٣٠.
الشيخ محمد حرز الدين، معارف الرجال، ج٢، ص٣٧٢.

(٣) السيد حسن الصدر، تكملة أمل الآمل، ص٣١٩.

كلام السيد الصدر عن السيد محمد رضا جاء في معرض ترجمته للسيد فضل الله الحسني. وهذه الشهادة، مضافاً لإظهار مكانته العلمية، هي شهادة لسلوكه وبلوغه مراتب الكمال والمعرفة، وبلوغ مرتبة العالم (القدوة).

أما الشيخ محمد مغنية في كتابه (جواهر الحكم)، وهو الخبير بعلماء تلك المرحلة، وهو الذي أشار على السيد يوسف شرف الدين أن يشيّد مدرسة في (طورا)، إنضمّ إليها السيد محمد رضا سنة ١٣٠٥هـ، ومما قاله بحقه: «قد جمع السيد محمد رضا بين رئاستي العلم والأدب».

وقال عنه، صاحب رجال الفكر والأدب في النجف: «عالم فقيه، أصولي، من الشخصيات اللامعة ومن الأفذاذ»[١]، وهذه الشهادة المتينة تصدر عن رجل عارف ومتتبع، وهو يتحدث عن شخصية اشتهرت في الحوزة العلمية، وبان فضلها ومكانتها.

السيد الأمين في الأعيان، قال: «كان عالماً فاضلاً أديباً منشئاً، قرأ في جبل عامل، ثم هاجر إلى العراق لطلب العلم، وقد خرجنا من النجف، وبقي هو»[٢].

وهناك بعض القصائد التي تُظهر مكانة السيد محمد رضا من قبل بعض الأعلام، كالسيد عبد الحسين نور الدين[٣]

سَقَى صَيِّبُ الوُدْقِ أَوطَانَها محاني الصَّريم[٤] وكثبانها
ولا لَمَستهَا يَدُ الحادثاتِ ولا رَوَّعَ البيْنُ سُكَانَّها

(١) الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب، ج٢، ٩٤٢.
(٢) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١٤، ص٦٠.
(٣) السيد عبد الحسين ابن السيد محمد ابن السيد إبراهيم النباطي نور الدين المتوفى سنة ١٣٧٠هـ، عالم فقيه، وأديب شاعر، من أعلام الدين والأدب، تتلمذ في النجف على الشيخ محمد طه نجف والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمد كاظم الخراساني، وشيخ الشريعة الأصفهاني، ثم عاد إلى بلاده في جبل عامل، وتصدى للتوجيه والإمامة، والأمور الحسبية والتصنيف والإرشاد. له من المصنفات: عقود الدار والجوهر (ديوان شعر)، الكلمات الثلاث، عمر والإسلام، الرد على هيكل في كتابه محمد ﷺ، كما شارك في مؤتمر وادي الحجير الذي انعقد في نيسان ١٩٢٠م، وكان من اللجنة التي ذهبت إلى سوريا للقاء الملك فيصل إلى جنب السيد عبد الحسين شرف الدين والسيد محسن الأمين.
السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١١، ص٤٩٦.
الشيخ آغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ج١٥، ص١٠٧٥.
(٤) الصريم: القطعة من الرمل.

رُبوعٌ ألا حَيِّ تِلكَ الربُوعَ ... تقيَّلن فيها المَهَا بانُها
وتمشي بها السِّربُ مشي القطَا[١] ... تؤمُّ لدى الوردِ غدرانهَا
يَميسُ بها الدَلُّ مهما مشت ... كما هزَّت الرِّيحُ أغصانها
تَلفتنَ ذُعرًا فخلتُ استَرقنَ ... رقابَ الظباءِ وأجفانهَا
ومِسْنَ اختيالاً فقلتُ استعرْنَ ... غصونَ الأراكِ وأفنانَها
بدورٌ مهًا ما عراها الأُفولُ ... ولا حادثُ الخسْفِ قد شانَها
علقتُ بها أهيفًا أغيدًا ... مريضَ اللواحظِ نشوانَها
فديتُك قمْ غنِّ لي واسقني ... ونبِّه بكأسك نُدمانَها
فطيرُ السُّرورِ لقد أصبحت ... تُردِّدُ بالبِشرِ ألحانهَا
وهذي الليالي لقد أشرقت ... بعُرسِ فتًى بالهنَا زانهَا
فتًى بالندَى عمَّ كلَّ الأنامِ ... وقد خصَّ بالفجرِ عدنانهَا
فكهلاً إليه المعالي انتهت ... وفي المهدِ غذَّته ألبانهَا
وقد عقدتْ بأكفِّ الفخارِ ... عليه الرئاسةُ تيجانهَا
لك اللهُ من عالمٍ عارفٍ ... بحكمته فاقَ لقمانهَا
فللتَ بفكرتكَ المشكلاتِ ... وأوضحتَ كالشمسِ برهانهَا
فرُحتَ من العلم قطبَ الرَّحى ... ومن مقلةِ الفضل إنسانهَا[٢]
يمينًا ليمناك غيثُ الورى ... إذا كفَّتِ المُزنُ هتَّانهَا[٣]
وعزمُك أمضى من المرهَفَاتِ ... إذا نثر الطعنُ مرّانَها[٤]
فسُميتَ في الجدْبِ مِطعامَها ... ولُقبتَ في الكرِّ مِطعانهَا
فكم حلبةٍ نلتَ غاياتِهَا ... وخلَّفتَ خلفكَ فرسانهَا

(١) القطا: نوع الحمام.
(٢) إنسانها: سواد العين.
(٣) كفت: توقفت عن الهطول./ المزن: السحاب./ الهتّان: المطر الغزير.
(٤) مرّانها: رماحها.

أمبتغيًا شأوهُ[1] في العُلى رَصدَتَ لنفسك خذلانهَا
ألا اربَع[2] زعمتَ تُبارى الغَمامَ وكهفَ الأنام وقرآنهَا
فهذا محمّدُ[3] من وطّدتْ عليه الشريعةُ أركانهَا
وألقت إليه مقاليدهَا فشيّدَ بالعزِّ بنيانهَا
فجدّك أجدرُ فيه النجاحُ وشانيك[4] يربحُ خسرانهَا
هو البحر علمًا ومنه اغتدت بنو الغَوصِ تُخرجُ عقيانهَا
واروعُ ترتاعُ منه الأسودُ إذا سَجِف[5] النقعُ ميدانهَا
يضمُّ ببرديه ذا لبدةٍ خميص الحشاشة طيّانهَا
يميلُ ارتياحًا[6] بيوم النوال وفي الخَطبِ يَعدلُ ثهلانها
فلا عجبٌ إن وطأتَ الضُّراح وجزت السماء وكيوانها[7]
فإنّك من معشرٍ أوقدتْ من المندَلِ[8] الرّطبِ نيرانهَا
نجومٌ بها يهتدي المُدلجون إذا ما الدَّليلُ لها خانهَا
وانتم لهذا الورى ساسةٌ بكم حَفِظَ اللهُ أديانهَا
فلا زلتمُ آلَ فضلِ الإله إذا التبس الحقُّ ميزانهَا
فدمْ سيِّد الناسِ كهفَ الأنامِ ما هزَّت الرِّيحُ أغصانَها

(١) شأوه: مكانته الرفيعة.
(٢) اربَع: قف عند قدرك.
(٣) محمّد: الممدوح السيد محمد رضا.
(٤) شانيك: مبغضك.
(٥) سجف: ستر.
(٦) ارتياحاً: الأريحية النشاط إلى المعروف والإحسان.
(٧) كيوان: اسم زحل.
(٨) المندل: عود طيب الرائحة.

وأيضاً، نورد القصيدة التي قالها السيد أمين الحسني[١]، وهي:

رقصَ الدَّهرُ سروراً وارتياحْ ... وتغنّى طرَباً في طربْ
واستحال الليلُ بالبِشرِ صباحْ ... فأدر يا سعدُ بنت العنبْ
عاطنيها تتجلى في الكؤوسْ ... راحةَ الرُّوحِ حياةَ المُهجْ
خمرةٌ تجلو عن القلب البؤوس ... ما على شاربها من حَرجْ
قد أبحنا لحميَّاك النفوس ... فاشفع الرَّاح بلحظ غنِجْ
حيّهلْ فيها ودع عنك اللواح[٢] ... لا تعِ اللوم بذات الحبب
واسقنيها باغتباقٍ واصطباح ... وافرخيها بلماك الشنب[٣]
طاف فيها شادنٌ حلوُ اللمى ... قد حكى في قدِّه الغصنَ النَّضيرْ
أغيدٌ ينشدُ ألحانَ الغنا ... قائلاً والكأسُ عبَّاق العبير
مُلئَ الكونُ سروراً وهنَا ... بِزِفَافِ الشّمسِ للبدر المنير
وزهت أربُعُ هاتيك النَواح ... بخميلاتِ الهنا والطرب
ضاع[٤] في أرجائها نشرُ الأقاح ... بين هاتيك الرُبى والكثب
غَيثُ جودٍ في الورى هامٌ هَطولْ ... سيْبُه[٥] يُطفئ نارَ الطمْعِ
أصيدٌ يأنف من عيشِ الجَهولْ ... أنفهُ يأبى شَميمَ الضَّرَعِ[٦]
ثابتُ الجأشِ لدى الخَطبِ المَهول ... إن ثَبت أسْدُ الشّرى في جزَعِ
رأيُه أمضى من البيضِ الصِفاح ... إن عرا في الدهر داجي الكربِ

(١) السيد محمد أمين ابن السيد علي أحمد الحسني المتوفى سنة ١٣٨٢هـ، عالم فاضل وأديب كامل، وشاعر مجيد، تتلمذ في النجف الأشرف، ثم عاد إلى وطنه، وتصدى للوظائف الشرعية والتأليف. له من المصنفات: تنبيه الأفكار إلى دار القرار، ديوان شعر، المأمنة..
الشيخ آغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ج١٣، ص١٨١.
الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، ج٢، ص٨٨١.
(٢) اللواح: اللوم والعتاب.
(٣) افرخيها: امزجيها بلماك العذب./ الشنب: البارد الطيب.
(٤) ضاع: فاح وانتشر.
(٥) سيبه: عطاؤه.
(٦) الضراح: بيت في السماء مقابل الكعبة، أو الشّمس.

ليس تثني عزمَه سمرُ الرياح ... لا ولا البِيض بيوم الغصبِ
زمّ للفضل وللمجد النِّياق ... وحداها بسياط الهِمم
قد حَكتْ في عَدْوِها سيرَ البُراق ... لا تباريها هبوبُ النَسَم
حلَّقت فيه إلى السبعِ الطِباق ... فوطا بالجدّ هام الأنجمِ
وبنى بالمجدِ من فوق الضُّراح ... منزلا للعلم سامي الرُتَبِ
عمَّت الأقطارَ جوداً وسَماح ... كفهُ من عُجمِها والعرَبِ
قد علا بالعلم ما لم يعلُهُ ... في البرايا قبله من أحدِ
لو غدا العالَمُ طُرًّا كله ... رِفدَه[1] أوسعَ بالكفِّ الندي
ولِخيرِ الرُسلِ يُنمى أصلُهُ ... قد زكا فرعاً بطيب المحتد
بالهدى والعلم قد حاز النجاح ... غيرُهُ ما نال غيرَ التعبِ
وسما بالفضل والمجد الصُراح ... ورواه عن أب بعد أب
بحرُ علم طود حلم حاتَمٌ ... بالندَى طبّق جدواه الفضا
مِصقعٌ[2] قِس الذكاء عالمٌ ... قد علا بالفضل من تحت السما
ودَعامُ المجدِ فيه قائمٌ ... شاد بيتاً للعلى رَحبَ الفِنا
فهو ظِلٌّ للعُفَاة والضواح ... فسواه معقلا لم يطلبِ
هذه ساحاتُ مغناهُ مِراح[3] ... ومحطٌ في الزمانِ المجدِبِ

أمّا ما صدر من السيد محمد رضا بحق الآخرين، فهو لا يصدر عن عالم عادي، لا يرى لنفسه المكانة العلمية والإجتماعية التي تؤهله، أن يتحدّث عن الآخرين بهذه الكلمات، وهنا على سبيل المثال: نورد الرسالة التي تحدث فيها عن رحيل المجدّد

(١) رفده: عطاؤه.
(٢) مصقع: بليغ فصيح.
(٣) مراح: خصبه ممرعة.

المرجع السيد محمد حسن الشيرازي (طاب ثراه)[1]، وهي رسالة كبيرة نقلها أكثر الذين ترجموا للإمام الشيرازي، ومنهم (صاحب سبائك التبر)، وأيضاً نقل مقطعاً منها السيد عبد الحسين شرف الدين في كتابه (بغية الراغبين) في ترجمته للسيد إسماعيل الصدر[2].

ومما قاله السيد محمد رضا: بعد أن استهل رسالته بالحمد والثناء لرب العالمين، وتوصيف الموت، وتوصيف العلماء ومكانتهم عند الله عز وجل، فقد جعل لهم الشفاعة يوم القيامة بعد الأنبياء، وكيف كان مقامهم في الدنيا، الذي هو امتداد لدور المعصوم عليه السلام: «... وها أنا ذا أذكرُ لك بعْض ما شاهدْتهُ في النجف الأشرف عند ورود نعْيهِ إليه فتعلم أنّ ما تقدّم من وصْفي شذرَة منَ بْدرَة، أو قطرة من لجج، أمّا نعيه فورد لصاحب التلغراف ليلاً فما تجاهر به إلا لبعض خاصّته وذوي سرّه، لعلمه بأنّ الذي طرق المدينة شرٌ عظيمٌ فتمشّى الخبرُ في الناس سرّاً ونجوى، إلى أن انقضى معظم النهار، وأوردهم مناهل الشكّ وبلغ بعض المشاهير من علماء الأتراك فأمر بعض خاصّته على الفور باستنطاق لسان البرق من بغداد عن ذلك فأفصح على عُجمته، وتكشّف عن خبيئته، فمذ انقلب الشكّ يقيناً والخفيّ عاد جليّاً، تضعضع له النجف وارتجت بيداؤه، وأظلمت أرجاؤه، فكم فيه من شيخ منحن زاد انحناؤه، وانتقض بناؤه وشيخة قعيدة في كسر بيتها نشيدة:

بفيكَ الثرَى ناعي المَكارِم والعُلى وناعِي حِمَى الثاوي ورُشْدِ المُسَافِر
نعيْتَ لنا غيثاً وغوْثاً إذا بَدَا لنا العَامُ في شِدْق منَ الجدْب فاغِر»

(١) السيد محمد حسن ابن السيد محمود ابن السيد إسماعيل ابن السيد مير فتح الله الشيرازي المتوفى سنة ١٣١٢هـ، المعروف بالمجدد الشيرازي، من كبار مراجع التقليد وعظام علماء الإمامية، وأساتذة الفقه والأصول، ولد في شيراز سنة ١٢٣٠هـ، وتتلمذ على الشيخ مرتضى الأنصاري، والشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، والشيخ حسن كاشف الغطاء. هاجر إلى مدينة سامراء وفتح أبواب التدريس فيها. له من المصنفات: تلخيص إفادات أستاذه الأنصاري، حاشية نجاة العباد، حاشية النخبة، رسالة في اجتماع الأمر والنهي، رسالة في الرضاع، كتاب الطهارة، كتاب في الفقه.
الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، ج٢، ص٧٦٩.
(٢) السيد عبد الحسين شرف الدين، بغية الراغبين، ج١، ص١٩٦ و١٩٧.

ثم يصف السيد فضل الله حال أهل العلم عندما وصلهم خبر رحيل الإمام الشيرازي، وأنّ هذا الخبر بالنسبة إليهم، من الأخبار المؤلمة التي نزلت كالصاعقة على رؤوسهم، وكان يوم عزاء ومصيبة، فقال:

«وأمّا روّاد العلم وطلاب الفضل فغشيهم لبوس الاستكانة، وشملهم ضرع الاستسلام والذلة، تكاد تخرج شظايا قلوبهم في أنفاسهم وأبصارهم لا تتجاوز مواقع أقدامهم:

مُتهالكينَ من المُصابِ كأنهم نَبتٌ تميل به الرياح وتلعبُ
مستشعرين كآبةً ومذلةً ودموعُهم بحيَا الغوادي تَسكُبُ

قد استدرَجَهُمُ الوَلَهُ واسْتَهْلكتهُم الحَيرَة، لم يُصِيْبوا لغلق مفتاحاً، ولا لظلمه مِصباحا:

لم تَهدِ قصَّادهَا مِن فُرْط حَيْرَتِها ولا لها غيْرُ نفثِ الوَجْد مِن شُغُل»

ثم يصف السيد حضور عالمين كبيرين إلى الصحن الشريف، وكيف ضاق المكان بهما على سعته، وقدومهما إلى الصحن الشريف، الذي هو الملجأ عند النائبات، وفيه يجتمع أهل العلم، فيلوذون بصاحب هذا المقام، ويفوضون أمرهم إلى الله تعالى، فقال: «وكان الصحن الشريف على سَعة عظمه لم تنهض سعته بغير مَجْلسين: مَجْلِس ربُّه وأبو عُذرته سَنام الدّين وعزّ الشريعة والناهضُ بثقل أعبائها وهضبتها الرفيعة شيخنا الأعظم الشيخ الجليل الشيخ محمد الشربياني وهو من أعاظم علماء الأتراك وجهابذة فحولها، ومجلس جَديلهُ المُحَكك، بحر العلم الزّاخر، وسحاب الفضل الهامر، الشيخ المولى الأجل ملا محمد كاظم الخراساني، ولقد نُصب بمجلسه منبرُ الحضرة الشريفة، وذلك لم يُعهد لغير فاتحة السيد المقدس إذ هو غالي الثمن خطر القيامة، وفي عوده وإتقان صنعته معدوم المثيل».

ويتابع قائلاً: «ولقد انتضد المجلسان بذوي الرّتب العالية والمناصب الجليلة، وأشرق بحَمَلة الكتاب وحفاظ الشريعة وخزنة العلم وشيوخ الشيعة، وانتظموا في دوائر حلقتيهما انتظام الدُّرر، وبزغوا في آفاق حواشيهما بزوغ الشمس والقمر واحتشدا

وسطهما بالسّواد من عامّة الناس، فطفق المجلسان يتدفقان وقاراً ويطفحان مهابة، ويرسُبان سكينة ويطفوان مما ينكأ القرحة، ويثير الزّفرة حتى تعلو الصّرخة، وتستولي الفجعة من التذكير بمصاب المنتخب والدليل العالم، فما نرى من طرّف إلا وهو بالدمع ساجم. فإذا هدأت الفورة وسكنت الحنّة، واطمأنّت الأنّة، وهمدت الرّنّة، ذكرهم مآثر السيد ومناقبه وفضائله وفواضله، ونعاه بما لو سمعه الصّلد لسال أو السائل لجَمُد، وندبه المجلس نشيجاً ويطفح عويلاً، وهذه مأثرة لم تكن لأحد قبله.

هذا على صعيد أهل العلم والحوزة العلمية، أمّا بقية الناس من التجار والبزازين، والعطارين والبقالين وغيرهم فإنها أغلقت أسواقها وعطلت دكاكينها إلا اليسير منها لقضاء حوائج المضطرين، وبقيت مدّة من الزمان مظمئة هواجرها، متجلية حنادسها، مستشعرة أحزانها، مستفرغة مدامعها، مترَوّدة في الشكك، جائلة في الأزقة والأسواق مكشوفة رؤرسها عارية إلى أوساطها مع لدْم هائل لصدورها، ولطم فظيع لجباهها تسمعك به زجَلَ الرواعد وعصف القواصف، وقصف العواصف، وحنيناً يذيب الشمّ الشوامخ، والصمَّ الرواسخ، لم يتركوا للحزن غاية إلا أمُّوها، ولا جادّة إلا ركبوها، يتجاوبون في نشيدهم الذي لو تصغي إليه الرّيح لازدادت حنيناً ورقة، وأحدث شجواً في بكاء الحمائم، وأمّا العوائق من النساء ذوات الخدور المسدلة والأستار المرخيّة فإنها أقامت العزاء في دورها تندب وراء ستورها في مجالس من ربّات الصّون حاشدة، ومحافلَ من بيضات الخدور ملتفة تنعاه وتندبه على رقة صوتها وشجى نغمتها، بقول لو سمعه المعاقر لقدحه (شرب الدمع وعاف القدحا) وبلغة الحال أنشأت المقال:

أصاتَ ناعيكَ فارتجَّ البسيطُ له ... والشمخُ الهُضبُ مندكٌّ ومنفطرُ
كأنّ يومَكَ يومُ النفخ قد صَعِقت ... فيه البَرايا فمطروحٌ ومُنعفرُ
فالأرضُ راجفةٌ والشُّمُّ واجفةٌ ... والشّمسُ كاسفةٌ والزُّهرُ تنتثرُ».

ويتابع السيد توصيفه للمراسم التي تلت وفاته، وكيف أخذوا الجثمان الطاهر إلى زيارة المراقد المقدسة للأئمة الأطهار عليهم السلام في العراق، وأنّه مهما بلغ هؤلاء العظام

من مكانة علمية واجتماعية، فإنه من بركات أصحاب هذه القبب الشامخة، وكما كانوا لهم عوناً في حياتهم، فهم أكثر حاجة إليهم بعد مماتهم، وكما لاذوا بقبورهم في حياتهم، طالبين منهم العون والعناية، كذلك هم بحاجة إليهم بعد رحيلهم، لاجئين إلى كرمهم، متوسلين إلى الله بشفاعتهم، فيقول: «... وما زالوا به حتى أنزلوه حضرة الإمامين الجوادين عليهما السلام ما لاح كوكبٌ أو طرَفت عينٌ، فبات ليلته عائذاً بهما، لائذاً بضريحهما، فلما انفجر الإظلامُ عن الأغرِّ الأبلج، وذرّ قرنُ الغزالة على كلِّ مهمه وفجّ، أسرع لتشييعه من الرجال غُلبُها، ومن القبائل أشرفها، وتتابعت أفواج الناس مع وزراء الدول وشرطة الخميس وأمراء الأجناد وملتفّ العساكر، وسائر الفرق الدانية والقاصية حتى ربّات البراقع من النسوان، وأمهات التمائم من الولائد والولدان، إلى أن خلت المَساكِنُ وتعطلت الأسواق، وأقفرت العَرَصَات من بغدادَ والكرْخ وما والاهما من أهل الطنب والقصَب فكادت أن تملأ بكثرتهم بطون البيداء، وتغصّ بجموعهم لهوات الأرض وتضيق صدور الفيافي وتنسدّ رحاب الفدافد، وازدحموا على سريره ازدحام الهيم، وحشدوا حشد الصاديات الخماس، وساروا به ولكن على أمَضِّها فجْعَة وادْهَاها نكبة، وأنكاها قرْحَة وبالحال جديرٌ أن يقال:

إنّ هـذا الشّـريفَ يـومَ تَـولَّـى هـدَّ ركـنـاً مـا كـانّ بـالـمـهـدودِ
مـا درى نـعـشُـهُ ولا حـامـلـوه مـا على النَّعْش من عَفافٍ وجُودِ».

ويتابع أيضاً: «فصعدَ الخطيبُ المنبر والأعناقُ إليه مثنيّة والأصواتُ كاظِمَة فحذرهم إثارة الفتنة، وخوَّفهم عواقب الشرّ والفساد، ووعظهم بما سكّن به جامحتهم وأقلع نخوتهم، وذلل أنفتهم، وأخمَدَ جمْرتهم وذكرهم السَّيِّد والنكبة به والطامّة بموته، وعِظم البليّة بفقده، فانقادوا لأمره وأذعنوا لطاعته وشغلهم عن هيجان غلهم، وإثارة أحقادهم، وطلب ثاراتهم. دمْعٌ ساجِم، ووجْد لازم، وثكل ثاكل ودهش شامل، ولقد كانوا ما يزيدون على الثلاثين ألفاً فخرجوا به مع جمع من جاء معه وصحبه في طريقه، وخرجت معهم كربلاء بقضِّها وقضيضها، أحداثِها وشيوخها، ذكورها وإناثِها، أحرارها

ومماليكها مع نواب الدُّول وأمراء الشرط وجموع العساكر حتى خلت كربلاءُ من قاطن وزائر، وأنّ الرجل ليلطّ به الجوع فيجهد في تحصيل ما يقتات به من الأسواق، فلا يجد شيئاً إذ الأسواق مُعطلة والدّكاكين مغلقة.

ويتابع السيد فضل الله توصيفه لذلك التشييع المهيب، وكأنه من مشاهد يوم القيامة، مستفيداً من سورة الواقعة التي تتحدث عما يحدث في قيام الساعة، ولا غرابة في هذا الوصف، فحال الناس كان في ذهول وحيرة، ممّا أصابهم وفجعوا به، فقال: «فمضوا وقد رجّت الأرض من كثرتهم وأصواتهم رجّاً، وبُست الجبال بسّاً، فكادت أن تكون هباءً منبثاً، فهرعت لاستقبالهم من النجف الأشرف حفظة الشريعة وخزّانها، وشيوخ الشيعة وشبّانها، وذوات البراقع وأخدانها، وولائد بيضات الخدور وولدانها والأرامل في أيتامها والعجائز على عِصيّها، والشائِخات في انحنائها، ولم يبق إلا الزّمِنُ المُقعد، والمريض الذي لا يستطيع النهوض، وسبقهم مدلجاً في حُندُسِه شيخُنا الجليلُ الفقيهُ حبرُ المِلة الشيخ محمّد طه نجف، فاستقبل الجمعَ على فراسخَ من منزله وتتابعت الناس من ورائه على تفاوت طبقاتها وترتُّب درجاتها، وانتشرت في ذلك البرّ الأفجّ والفضاء المنفرج والفجّ العريض فمنهم المُرهف في عزمته، والمُسرّع في مِشيته، ومنهم الهابُّ بقوَّته واللاحق براحلته، ومنهم المتمهِّلُ لفجره والمنتظرُ لضعفه. مواكبُ تتبعُها مَواكِب ورِعالٌ تجري على أعقابها رعال، وزمَرٌ تشتدّ في أقاصي البرِّ بعْدَ زمره فخرجت في أعقاب الناس مع جماعة تنتظر قدومَ السَّرير فما جنحَت الشمسُ إلى ميلها المزنيّ بعد أن تغلغلت في كبد السّماء إلا وقد لاحت لنا الراياتُ السُّود كأنها قِطعُ الليل المظلم أو السّحاب المُكفهرّ مَنشورَة على عَوامِلَ كأنها آجامُ القصَب أو غابات الرِّماح، تخفقُ ألويتها بحُزن مُمِضٍّ ونكد مُجْهِض، وتهفو منها العِذبات بشآبيب العبرات، وتراوحها الرياحُ المُرنات بحنين نوح النائحات، ورنين ولولة الثاكلات، وكأنّ أجنحتها أجنحة الغربان الناعبة في فج بلقعة، لأهلها نادبة، يقدمُ السريرَ من بينها لواءٌ من الحرير منشورٌ أخضرُ، قد طرِّز وسَطهُ بالبياض وحواشيه بالأحمر وحوله أعلامٌ ملتفة من

الإبريسم والحرير الأخضر والأحمر والأصفر، قد نُسِجَتْ باللؤلؤ وطرِّزت بالذهب».

ويُتابع السيد في نقل ما شاهده، وتصوير ذلك الجمع المهيب، وكأنه في يوم الحشر، والناس تأتي جماعات، مذهولة لاتعرف ماذا يجري، فيقول: «ولمَّا امْتلأ بصري ممّا ضاق عنه البرُّ والسَّبيل، أنشأتُ القيل في صفة هذا الرحيل، فأقبلوا به والناس متسرِّبة في مسالكها، دائبة في مناهجها كأنها الجرادُ المُتراكِمُ، والجَداول السّائلة والأمواجُ المُتتابِعَة، والسُّيول المُنْحَدِرَة، وطلائعها تتراسَلُ بالعَشرَة والعِشرين والمِائة والمائتين وما فوقها وما يلوحُ لنا من كبد البرّ إلا تلكَ الرَّاياتُ الخافقة، والأعلامُ المنشورة، وما نرى من طلائعها القاصية والمواكب النائية إلا سوادَ هياكلها وأشباحَ صُورِها فبقيت طلائعُها تنسابُ في مجاريها بما يزيدُ على ساعتين من النهار فما كان إلا وأقبلت كتائبُ تتلوها كتائب، كلُّ كتيبة يقدمُها من الرايات السُّود العشرة والعشرون فما فوقها نازعة سرابيلها، حاسرة عن رؤوسها تدقّ بكامل عزمتها صدورَها بأكفٍّ كأنها خلقت من زنودها، وكأنّ صدورَها صفائحُ المَرْمَر أو صفيحُ قِطع الرّخام وما علاها من اللحم كأنه أكباد الإبل أو كلاكل الأباعر، فتراسلت جملة من الكتائب على هذه الهيئة كلّ كتيبة ترِدُ أعظمُ من سابقتها فوقعنا ننتظر، وكلما مرّ بنا ملأ أو رعيلٌ قلنا لعظمه إنه صاحبُ المَحْمَل وربّ السّير، إلى أن بقي من النهار شطره.

فبينما نحن كذلك وإذ كأننا بالأرض أنبتت رجالاً عزلاً، وبالسَّماء وقد أمْطرت خلائقَ حاسِرَة، لا تملكُ البَسْط في خطاها، ولا القرار في مسعاها كأنها مقرونة في صفد لا تكادُ تهبط برِجْل ولا ترقى بيد، يموجُ بعضُها في بعض، ويجهدُ القويّ منها أن تملكَ قدماه الأرض متداكّة حول السرير تداك الهيم، مزدحمة ازدحام القطاة متهافتة تهافت الفراش رعيلاً صموتاً قياماً صفوفاً، قد أصْهرَتهم الهاجرة، وكاد أن يلجمهم العرق، منقوضة العزائم مَحْلولة العَمَائم مَسْحُوبَة الأردية مَجرورة المطارف مَرْخيّة المَآزر قد خفّت أحلامها الرُّجّح وطارت ألبابُها الرُّسخ، وهوت منها الأفئدة وتفطرت الأكباد وانتفعت من الوجَل ألوانُها واغبرَّت من الرعب وجوهُها، وهتكَ محاسنَ رؤوسِها

شعَثها، وغيَّرَ نضارة أبدانِها شحّبُها، وخشعت منها الأصواتُ فلا تسمعُ إلا همْسا، لا تقدر على مواصلة بكائِها ولا على رجّع الصوت في نشيجها، فلم ترَ غيرَ أجْفان دلع، وعيون همَّع، تحْكي الغيث الغدِق، والغَمَامَ المُنبَعِق، بشآبيبَ مُندفعة كالتيّار مع زفرات كالنار في الهشيم، والسرير من فوق رؤوسها قد تكلل بالهيبة، وتجلل بالوقار وتهادى بالجلالة وحفَّ بالمَهَابَة ودُسِي بالسّكينة، وقد طرحن عليه حلل الحرير الموشاة باللؤلؤ الرَّطب والدرِّ والذهب منحنية أصلاعه على أرسخ هضبة خفت لها أعلام برقة ثهمد:

وكأنه التابوتُ فيه سَكيْنةٌ أمْستْ لهُ زمَرُ الملائك تحْملُ
وبقيّةٌ من آلِ أحمدَ خلفت فينا فبانَ بها الطريقُ الأمثلُ

فما زالوا به والنّسَاء من وراءِ الرِّجال قد ملأت البيداءَ صُراخاً وعَويلاً وولولة ونحيباً داعيات بالويل والثبور كأنّ قد اقتربت السّاعة، أو أزف النشور إلى أن أنزلوه لدى:

مَعْقِلُ الخائفينَ من كلّ هَوْلٍ أوفرُ العُرْب ذِمَّة أوفاها

فبقيَ في الحضرة إلى السّاعة السّادسة من الليل ثمّ إنَّهم لمَّا عزمُوا على مواراته شقوا له ضريحاً دون غاية مَجْده وجَلاله، انخفضَ الضُّراح الأرفع في سِرداب من المدرسَة المُلاصقة بجانب الصَّحْن الشّريف الشماليِّ شرقيّ رُكن الباب الذي يُسمَّى بباب الطوسِيّ قد بناها أحدُ نواب الهند على أحسن هيئة، وآلى على السيد أنه إذا نزل به القضاءُ أن يكون مدفنهُ بها، فانفردَت طائفة من خاصّته بدفنه بعد أن عزم عليهم قيّم الحضرة الشريفة ونائب الدولة العثمانية أن يدفنوه في أيّ جانب أراد من الرُّواق الأقدس فاعتذروا بوصيته ثمّ أنهم:

جاؤوا به وطَووه في مَلحودَةٍ دانت لها هامُ السُّهى والفرقدِ
في مَعهدٍ ودّ الأثيرُ لو أنّه أمسى ثرًى لجنابِ ذاك المرقدِ
كم قيل لا تبعد وليس بنافع فيه مقالةُ واجدٍ لا تبْعُدِ

ثم يصف قدس سره حال العلماء الزهاد، كيف كان حالهم بعد دفن السيد الشيرازي، وكأنه بالنسبة إليهم اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعبروا عن حزنهم العميق

لهذه الخسارة التي لا يعوضها شيء، إلّا الصبر والمضي في هذا الطريق، ونرى هنا كيف يقدم السيد فضل الله وصف حالهم بعد دفنهم لأستاذهم، وكبيرهم، ومرجعهم، فقال: «أمّا العلماءُ الذين ارتقوا منازلَ الكرامة، وأخذوا بمجامع النّسك والزّهادة، وقلبوا للدنيا ظهرَ المِجَنّ وألقوا حَبْلها على غاربها فتراها مطرقة وكأنّ ألوانها بالزعفران مُعَصْفرَة قد حنت ضمائرُها، وتقسّمت خواطرُها وغدت تفيضُ بالحكمة جوانُبها، وفي ذمِّ الدُّنيا لسانُ حالها أصبحَ ناطقاً تباً لك أيَّتها الدّنيا وترحاً من غوّالة أكالة، غرّارة خدّاعة، صِحّتُك إلى سَقم وشبَابُك إلى هرَم، غاية اللابِث فيك الانحِناءُ والعَجْز، وقرينه الكدَرُ والهمومُ، أجلك الموتُ، وإدراكُ الآمال فيك الفوتُ، كمْ قوم أرْهقتهُمُ المنايا فيك دون الآمال، وشمِّ عنها تخرَمُ الآجال، هل ينتظر أهلُ بضاضة الشّباب فيك إلا حواني الهَرَم، وأهلُ غضارة الصِحّة إلا نوازلُ السَّقم، وأهلُ مدّة البقاء إلا آونة الفناء».

ويتابع أيضاً:

«ولما نفضت الناسُ أناملها يأساً من ترْبه وسُقِط ما في أيديهم من فقده، رجَعَتْ إلى إقامة العزاء في مجالسها المعدّة ومحافِلها الحاشدة وأنديتها العامرة بتلاوة القرآن وترتيله، والإبتهال إلى الله جلّ جلاله ودعائه، وتذكّر مُصاب سيّد الشهداء وأبي الآئمة الأمُناء إذ لمُصَابِه يَضْمَحِلّ كلّ مُصَاب جليل، ويهون كلُّ خطب فادح فابتدأ الشيخان الجليلان والفقيهان الأعظمان إماما الملة وعمادا الأمة شيخنا المولى الأعظم الشيخ محمد طه نجف وشيخنا المولى الجليل الشيخ ميرزا حسين خليل، شيّد الله بهما أركان الشريعة، وشدّ حماية حوزتها المنيعة، ثمّ تتابعت الناس من ورائهما إلى أن كاد أن ينقضيَ مِن رمضان عامَّته، إذ كان ورودُه النجف الأشرف في أول يوم منه في السنة الثانية عشرة بعد الثلاثماية والألف هذا ما كان في النجف الأشرف على إيجاز من حاله واختصار من أمره وأمّا كربلاءُ وبلد الكاظم سامُّراءُ وبغداد والحِلة فكثرت مجالس الفواتح فيها والتراحيم وما جرى بهنَّ من لبْس السّواد وتجلبب الأحزان، واسْتِعْظام

المُصاب وما رُئي به من جيّد الشعر ورائقه مما يضيق المقام عن بيانه ويقف جوادُ القلم عن الجولان في حومَة ميدانه.».

ويتابع أيضاً: «على أنَّ في تعطيلها الخسران العظيم، وتفويت الأرباح الجليلة، والمنافع الكثيرة إلى أن انقضت أيامُ حُزْنِهم، والتفت أعلامُ مُصابِهم، وهذا ما تقدمه لم يُعْهَدْ جرى لأحدٍ من سادات الناس وأشرافها غير السّيِّد المقدّس طاب ثراه، هذا على إيجاز من الأمر وبيان الحال، وهذه رسالة اعتمدت فيها على الاختصار لأنني لم أكنْ بصدد شرْح الأحوال وتفاصيل جملها، بل أردت بها إخبار بعضِ الأرحام في جبل عامل، فكانت على نظم الكتب التي تنقلها البردة، والرسائل التي تنقل إلى البلاد النائية، ثمّ انتدبت إلى رثائه الشعراء، وثنت أعنته إلى نعيه وندبته وأنشأت، فأكثرت ونظمت، وكنت قد عزمت على ترك الشعر غير أن بعض الإخوان ألحَّ عليَ بأن أجري في هذا المضمار، ولسان حاله يقول:

لمن بعد هذا الطودِ يُدّخرُ الشِعرُ وهل لعيونٍ لم يفِضْ ماؤها عُذرُ

إذاً، في هذه الرسالة التي يصف بها السيد فضل الله، رحيل ذلك المرجع الكبير السيد الشيرازي، إنما يُعبّر عن دقة ملاحظاته، وقدرته على التشبيه بين الأحداث، والوصف الدقيق، وعن العلاقة الحقيقية بين الناس، وبين علمائهم الأعلام، وعن المكانة التي كان يختزنها المرجع الشيرازي عند العامة والخاصة، وأنهم هم صلة الوصل ما بين الناس وأمامهم الغائب عجل الله فرجه.

وفي رسالة أخرى، يبيّن السيد محمد رضا فضل الله، موقع المجتهد وارتباطه بالإمام عجل الله فرجه في زمن الغيبة، ثمّ يتحدث عن أنّ هذه الأوصاف تنطبق على ابن عمه السيد نجيب ابن السيد محيي الدين فضل الله، بحسب ما رآه وما خبره منه، وهي ليست إجازة بالإجتهاد، فإما أن تكون جواباً على سؤال وجه إليه، أو كان يقدمه كنموذج يُحتذى به من بين هؤلاء الأعلام، وهو يشهد له بهذه المواصفات التي حاز عليها السيد نجيب، من العلم والملاكات التي جعله العالم الكامل، والقدوة والمعتمد، وأحد

المراجع للناس في جبل عامل، الذي يُرجع إليه في الأحكام وفي حلّ الخصومات، وممّا جاء فيها: « ... وليس مجرّد العِلم بالأحكام الشّرعيّة والوقوف، إليها على القواعد الأصوليّة سببّاً موجباً للفيوضات الإلهيّة، والنفحات القدسيّة التي أقرحت الأجفان في البكاء عليها العلماءُ الربّانيّون، وأظمأت هواجرها في ابتغاء نيلها العارفون، وتقطعت أنفسهم حسرة عليها المريدون، واستعجلت منایاها من الحبّ لها وتقطعت أنفسهم حسرة عليها المريدون، واستعجلت منایاها من الحبّ لها المشتاقون، واضطربت أفئدتُها اضطراب الأرشية من الخوف الوجلون، وأدميت أقدامها في مذاهب الطلب لها القاصدون، وتنعمت أرواحهم في حدائق المكاشفة ورياض القرب منها الواصلون، وتجرّدت أنفسُهُم من ملابسها الطبيعيّة ولبست أثوابَ الفناء لها الفائزون.

ما العلمُ إلا طريقٌ نُصِبَ للعمل. والعملُ وسيلة لبلوغ تلك الدرجة العالية والذروة السامية. وليس العالمُ الذي تسلكُ جادّته من مهّد القواعد وأسّسها وأحكمَ الفروع وأتقنها، وهو يهوي بأودية الشّهوات أو يرتع في مرابض الشبهات؛ لا يعرف باب الهدى فيتبعَهُ، ولا باب العمى فيصدَّ عنه، فالسيد في هذه الرسالة يتحدّث عن العالم الذي أصبح هو صلة الوصل بين الناس والإمام عجل الله فرجه الشريف، فلا يكفي أن يحوز على مكامن العلم والمعرفة بالقواعد والأصول، ويخوض في لججه، فهذا لا قيمة له، من دون أن يتماشى ذلك مع تربية النفس وتهذيبها، فكلما ارتقى في العلم درجة، يجب أن يرتفع في ملاكات الكمال ضعفها، حتى يحوز على مكانة العالم العامل القدوة، وأضاف: «بل الذي أحقُّ بالإقتداء وأجدرُ بالاهتداء من كان من عمَّرَ الليل في تهجداتِه، وكالحنايا للبرية في خلواته، لم تفتله فاتلات الغرور، ولم تقم عليه مشتبهات الأمور. قد تنكَّبَ المخالج عن وضح السبيل، وسلك أقصر المسالك إلى النهج المطلوب، فراح على ما وصفه الصديق الأكبر، وقد زهَّرَ مصباحُ الهدى في قلبه وأعدّ قِراه ليومه النازل به قد ظلعَ سرابيلَ الشهوات، وتخلى عن الهموم إلا همّا واحداً انفرد به، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس.

قد نصّب نفسه لله في أرفع الأمور من إصدار كلّ وارد عليه وتصيير كلّ فرع إلى أصله. مصباحُ ظلمات، كشافُ عَشوات. مفتاحُ مُبهمات دفاع معضلات دليلُ فلوات. فهو من أركان دين الله وأوتاد أرضه يصفُ الحقَّ ويعملُ به. قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائده وإمامه يحلّ حيث حلّ ثقله وينزل حيث كان منزله. وممّن جرى في سنن هذه الحلبات الشريفة جواداً سابقاً وجمع بين ورع واجتهاد وفقه وسداد، وبذل نفسه في استئصال شأفة الجهل، حتى وقف على حقائق أحكامه، واستخرجَها من أكمام السُّنّة، ورياض محكم كتابه، البَرُّ الثقة المعتمَدُ السيد نجيب فضل الله الحسني العاملي[1] شدّ الله به أزْرَ الدّين وأعلى بوجوده منار كلمة التوحيد وجمَعَ به على الحقّ الكلمة وأصلحَ ذاتَ بيْن الأمّة؛ فإنا طالما غمزناه وعَجَمْناه وساجلناه وخضْخَضْناهُ وتعرّفنا خميرَه من فطيره، وسَحُورهُ من بكوره.

فما اقتنصَهُ من فرائد العلوم، وحازه من جواهر المعارف، وما تلبّسَ به من الورع والزهادة والعفّة والنزاهة؛ فوجدناه خِضَمّاً يطفحُ تيّاره، وبحراً يعبُّ ماثرُه، وغماماً سدّ الأفق ماطرُهُ، ودلاحاً يرعَدُ زاخرُه، وعارضاً يلمعُ بارقهُ. فهو حديقة علوم تفتّحت أزهارُها، وأينعت ثمارُها.

لم يدع لها غاية إلا أمَّها، ولا ذروة إلا تسنّمِها، ولا جادّة إلا رَكِبَها، حتّى وقفَ على حقائقها، ونظر في خفايا دقائقها، وخاض ما طغى من لججها، وركب ما عظم من ثَبَجِها، وعطف واردها على صادرها، وأوّلها على آخرها. قد قتل أرضها خبْراً، ونحَرَ ديمومة مقفراتها معرفة؛ فنظم شتاتها، وعدّل جهاتِها، وراحَ وهو المالكُ لأزمتها، والمصرّف لأعنّتها، والمرفرفة على رأسه خافقات ألويتها، بعد أن ورد من ينابيع أصولها، وكرع من سلسبيل حياض فروعها إلى أن صار يدعى بها الخِرِّيتَ الماهرَ، والجَديْلَ المُحَكك.».

(١) السيد نجيب الدين فضل الله: من أعلام القرن الرابع عشر هجري، ولد سنة ١٢٨٠هـ، ذهب إلى النجف الأشرف بعد رحيل الشيخ موسى أمين شرارة بسنتين أي سنة ١٣٠٦هـ، فدرس فيها على الأساطين، وحاز قصب السبق في العلم والزهد والمعرفة، ثم عاد إلى بلاده في جبل عامل، وهو من الأعلام الكبار، توفي سنة ١٣٣٦ هـ.

وثمّ يختم الرسالة، بقوله: « وحيث إنّ السيد المؤيّد أدام الله مجدَه ـ السيد نجيب ـ ممَّن ثبَتَ لهُ بصريح ما ذكرناهُ النيابَة، وتمّت له السّفارَة والولاية، وعادَ حجَّة من حجج أجداده الطاهرين على سائر الخلق من العامّة أجمعين، والردّ عليه في ما يقضيه بين الناس في اختلافاتهم ومنازعاتهم على حدّ الشرك بالله والاستخفاف بأوامره جلت عظمته، وجب على العامّة ثني أعناقها إليه، والعكوف بقلوبها وأفئدتها عليه، وأن تكون مؤتمرة لأمره منتهية لنهيه مطوّقة أجيادها خاضعة لإمضاء حكومته أعناقها، ملقية إليه مقاليد أحكامها، وأزمّة حلالها وحرامها، واقفة عند بيانه، مستضيئة بنيّر برهانه، ولقد قالَ جلّ جلاله مخاطباً لنبيّه ﷺ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ ونلتمس منه أن يَسّلكَ في قضائه وفتواه جادّة الإحتياط؛ إذ ليس بناكب عن الصراط من سلك طريق الإحتياط كما نلتمس الخالص الأبرّ من الدعوات لا سيما في رمضان الإجابات والله وراء ذلك وليّ التوفيق.»

وممّا يُدلل على مكانة السيد محمد رضا، وأنه وصل إلى مكانة، صار معها قادراً على أن يقدم الشهادات العلمية، ويوجه أهل العلم إلى ضرورة الإلتفات إلى المهام التي تنتظرهم، وأنهم حجة الله على الناس، وهذه المكانة لا تأتي بالحصول على العلم فقط، وأن الوظائف الدينية الملقاة على عاتقهم تستلزم اليقظة دائماً، وعدم الغفلة عن النفس الأمارة بالسوء، وأن النقاء والصفاء، هو الأساس في رقي الإنسان، ولهذا نراه يُحذر من تلك المخاطر التي قد تُصيب علماء الدين، ما لم ينتبهوا إلى أنفسهم، ويبتعدوا عما تجمع إليه نفوسهم، من هنا نراه يوجه رسالة إلى أحد العلماء، الذين مكنهم الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولربما وجد السيد منه بعض التقصير في هذه الوظائف الإلهية، فأراد تذكيره من خلال تبيين دور وظائف علماء الدين، وموقعهم المتقدم، في حفظ الرسالة، وكيف صاروا نواباً للإمام عجل الله فرجه في زمن غيبته.

وأيضاً، يتناول السيد محمد رضا، في رسالة، دور عالم الدين ويبيّن الوظائف الملقاة على عاتقه، ومما جاء فيها: «أمّا بعدُ، فإني أحمَد إليك الله العظيم، الذي جلت آلاؤه، وتواترت نعماؤه، على ما أولاك من جميل نعمه، وجزيل قسمه، بأن اختارك من بيت أحكم العلم والتقى أسَّ بنيانه، وشيَّد المجد والنهى شامخ أركانه، علمًا لدينه، ومناراً لشريعته، يهتدي بك التائهون في أودية الغفلات، ويُرشَد بك الضالون عن سلوك سبل النجاة، فنهضت غير متلكئ، ولا متلعثم، دارجاً في سنن من مضى من قبلك من العلماء الأعلام، وراكباً جادّة من تقدّمك من فقهاء الملة، وسادات الأنام، لم تفتلك عن سلوك مناهجهم فاتلات الغرور، ولم تلتبس عليك في وطء جوادِّهم[1] مشتبهات الأمور، بل نهضت بعبء ما في أعبائه نهضوا، وحلقت إلى ما في أفق سمائه حلقوا، وجاريت منهم البزل القناعيس[2] في حلباتها، وأطلقت الأعنّة معهم في السّبق إلى غاياتها، فصابرت علمهم دراسة حتى نفيت قشره عن لبابه، ورابطت الجد فيه استدامة، حتى أبنت خطأه من صوابه، واستفرغت الوسع فيه اجتهاداً حتى تعرَّى الليل عن صبحه، وصرَّح المخض عن زبده، واختمر فطيره، وراق نميره، فرفّت عليك من رايات أصوله عذباتها وخفقت عليك من أعلام فروعه ألويتها. لم تخلط رائبه بخائره، ولا جديده بدائره غير متسكع في وهدة الحيرة بطرقه، ولا مرتطم في حلّ شكوكه، ورفع غياهب شبهه، ولا متلكئ فيه تلكؤ مضطرب الرويَّة، ولا متسرع فيه تسرّع من أغفل في سنن اليقين، واقتطعت أزاهير أحكامه من رياض سنة أو محكم كتاب مبين.

وما زلت تشكّل أرضه الغرس بعد الغرس، وتضرب لأسداسه الخمس بعد الخمس، حتى التفَّ شجر حدائقه، وأينع ثمر رائقه فتألقت للمجتدين بارقاً لماحاً يستتبه عارضاً دلاحاً، وتجليت فيه للمسترشدين به منار اهتداء، ولألاء سناء، وقمر دجنة، إلى أن اتضح المنهج لراكبه، والسبيل لسالكه، فالضلال إمّا عن عمى طرف السالك، أو من عمه بصيرته:

(١) جوادّ: جمع (جادَّة): الطريق الواسع.

(٢) البزل القناعيس: البزل هو البعير الذي بلغ التاسعة من عمره، والقناعيس هو الجمل الضخم القوي.

ما واضحُ النهجِ فيه ضلَّ سالكُهُ إنّ المضلين ساروا فيه عميانا

وليعلم الأخ أيّده الله برعايته، وسدّده بعنايته أنّ من حباه الله هذه المنزلة الشريفة وأحله في هذه الذروة المنيفة، كان بالجدير أن يحدث لله في أقواله وأفعاله له حمداً وشكراً، وأن يواصل الحمد والشكر سرّاً وجهراً، مع الإسراع لإنقاذ أوامره المفترضة، والمبادرة إلى إحياء سننه المندوبة، وإن أجلَّ ما افترضه الله تعالى شأنه على العلماء الربانيين الوارثين لرسله المنتجبين والمخصوصين بالسفارة والنيابة عن الأئمة الأطيبين الأنجبين بذل الوسع والطاقة واستفراغ الجد والاجتهاد بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من إحياء سنة دائرة وإماتة بدعة قائمة، وتعديل الأود، ونفي الزيغ، وإصلاح ذات البين، وإطفاء النائرة، ولمِّ الشعَث، ورأب الصدع، وقمع الفساد، والمنع عن الفحشاء والمنكر والبغي ما ظهر منها وما بطن، ونصرة المظلوم وإعزازه، وإهانة الظالم وإذلاله، ولقد قلدت أجياد العلماء ربقة هذا الغرض براهينُ جلت عن الإحصاء، وكبرت عن الاستقصاء، وليكفهم إلزاماً في ذلك ما أعلن به سيد الأوصياء عليه أفضل السلام وأتمّ الثناء حيث قال: «ولولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم وسغب مظلوم لألقيت حبل هذه الدنيا على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها ولألفيتم دنياكم عندي أزهد من عفطة عنز».

بعد هذا الموجز يمكن أن نتبين من خلاله موقع السيد محمد رضا فضل الله، وأن هذه المكانة لم تأتِ من فراغ، وإنما هي نتاج جُهدٍ مرير.

في النجف الأشرف، عمل السيد محمد رضا ضمن محاور ثلاث:

الأول: التحصيل العلمي؛ من الفقه والأصول، والفلسفة وعلم الكلام، وغيرها... وإن كان علمي الفقه والأصول، هما الأساس في طلب العلم، والباعث نحو طلب العلم والذهاب إلى المراكز العلمية، وتحمّل كل المشاق.

الثاني: الشعر والأدب، وكانت النجف تعج بمجالس الأدب، مضافاً لكونها حاضرة علمية، فهي أيضاً حاضرة أدبية، وتعقد فيها مجالس الأدب، وينبري الشعراء في إطلاق

العنان لقصائدهم، وفي إحياء المناسبات الدينية والإجتماعية، وحتى أنّ كبار العلماء كانوا ينظمون شعراً أبحاثهم الفقهية والأصولية، وهو ما يُعبر عنه (بالمنظومة)، كما عمل العديد من الشعراء والأدباء على جمع تلك القصائد، وتلك المحافل بكتب ومجلات ودوريات، وكان السيد محمد رضا من أولئك الشعراء والأدباء الكبار الذين أغنوا تلك المجالس الأدبية، وله مشاركات في أكثر من مناسبة. وذات يوم توفي نجل أستاذه كبير فقهاء العرب الشيخ محمد طه نجف الذي افتقد ولده الوحيد العالم الجليل، فقال فيه:

نهلَ الزَّمان وعَلَّ غيرَ مُصَرَّد ... صفوًا تصفَّقَ بالزُّلال الأبردِ[1]

من كلِّ فيَّاضِ اليدينِ بشتوةٍ ... غبرا[2] وبحرٍ بالمكارم مُزبدِ

رحْبُ المقاري للوفودِ إذا غدت ... نكباءَ تلوى بالنضير وبالندي[3]

ما زال غرثاناً يصرّف نابه ... بمُقذف قرْم وليث مُلبد[4]

ويصول والآجالُ رائدةٌ له ... لا طائشاً رعشَ الجَنانِ ولا اليدِ

نصَبَ المنايا للأنام حبائلاً ... فالمهتدي فيه كغير المهتدي

سافر بطرفِكَ هلْ ترى من سالم ... إنَّ المنون على النَّفوس بمرصَدِ

كمْ ضاربٍ فوقَ السَّماء قبابَه ... شرَفاً وآخر بالحضيض الأوهدِ

جعلتهما للحشرِ رهنَ قرارةٍ ... ساوت بذلِّ العبدِ عزَّ السَّيِّدِ

وتهافتوا عن كلِّ شامخة الذُّرى ... وترجَّلوا عن كلِّ سامٍ أجردِ

ساروا على عَجَل وما كان السُّرى ... منهم بلاحبِ[5] نفنفٍ أو فَدفدِ

نزلوا بمدَرجةِ الفلا في منزلٍ ... متشابهِ الأرجاءِ غير مُوَطَّدِ

(١) غير مصرد: شربه غير قليل، وقد استعار للزمن الشراب بكثرة من الصفر للدلالة على أن يده تطال صفوة الناس، وتودي بهم./ تصفق: امتلأ.

(٢) غبرا: مجدبة وهي غبراء قصرها الشاعر للضرورة.

(٣) المعنى أن المرثيّ كان كريماً يطعم المحتاجين في أيام القحط والجدب التي ينكب فيها الناس ويفتقرون.

(٤) يصرف نابه: صريف الناب الصوت الذي تحدثه الأنياب عند احتكاكها لغضب ونحوه./ المقذف: كثير اللحم./ القرم: صاحب الشهوة إلى اللحم، والمعنى أن الدهر لا يشبع من اختطاف الناس فهو ينشب أظفاره فيهم، ويصرف أنيابه عليهم.

(٥) اللحب: الطريق الواسع.

سفر أناخوا ليس يُرجى منهمُ ... في الدَّهر أوبةُ مُتُهِم أو مُنْجِدِ[1]

ركسوا[2] بطارقةِ البلى في هُوةٍ ... ليست بذات قرارةٍ أو مقصَدِ

شُغِلوا بما كسبت بها أيديهُمُ ... لا منشدٌ يُصغي لآخرَ مُنشِدِ

يا خابطَ العشواءِ يَتّبعُ الهوى ... إثنِ الزَّمام فما الدّليل بمهتد

فالقصْدُ أمسى من ورائك فالتمس ... قصْداً فما تنحُوه[3] غيرُ المقصد

لا تركبنَّ من الليالي صعبةً ... إن تنجُ فيك اليومَ تعثرُ في غدِ

فخذ الطّريق النَّهجَ واحذرها فقد ... أبت الليالي أن تقاد بِمقَوَدِ

من كان معتبراً بها فليعتبر ... بالأمس طارقةٌ بربَعِ محمَّدِ

سلبته عضبًا أرهفت شفراتِه ... بغوارب كانت طليعةَ منجد

ومثقفُ الأنبوبِ يَختر[4] إنْ رغا ... خطبٌ تنمّرَ في ثياب المعتدي

نادته داعيةُ القضا فأجابَها ... والمرءُ في الأيَّام غيرُ مخلّدِ

ومضى حميدَ الذكر يُشرقُ وجهُه ... للّه في جِنحِ الظلام الأسود

فرعٌ نمته إلى المكارم عصبةٌ ... أخذت بآفاق العُلى والسؤددِ

كمْ راضَ مِنْ قبِّ الفصائل صعبةً ... غلباءَ تأنفُ من خشاش المقود[5]

وإذا المسائل أظلمت شبهاتها ... وغدا الألدُّ بحَيرةٍ المتلددِ[6]

تجلَّى بثاقبِ فكره فكأنها ... كُسِيَتْ بضوءِ جبينه المتوقد

بكر النعِيُّ به فأرجفَ إذ نعى ... ورمى البرايا بالمُقيم المقعد

وأثارها دهياء تلعب بالنُّهى ... لعِبَ النّعامى[7] في هشيم الفدفد

---

(١) سفر: مسافرون./ أناخوا: أقاموا.

(٢) ركسوا: رجعوا وارتدوا.

(٣) تنحوه: تنهجه. والبيت فيه دعوة إلى سلوك الطريق المستقيم والبعد عن الضلال.

(٤) يختر: الختر الفتور الاسترخاء والمعنى أن الخطوب المتواترة التي تفترس الناس تجعل القوي ضعيفاً، فهي توهي جلده، وتثلم حدّه.

(٥) قبّ الفصائل: أقواها وأشدها بين الفصائل./ غلباء: قوية تغلب غيرها في السير.

(٦) الألدّ: الأشدّ خصومة في الجدال./ المتلدد: المتلفّت يميناً وشمالا المتحير.

(٧) النعامى: رياح الجنوب.

ساوا من الأبراد جسماً قد غدا ... طهْرَ المياه وريَّ أحشاء الصَّدي
وبطيب عابقةِ الشذا قد ضَمَّخوا ... جسداً تضمَّخ فيه أرجاءُ النّدي
قد أدرجوا ما بين برديه الهدى ... والمكرمات وكلَّ مجد أتلد
حملوا سريراً ضمَّ أرسخَ هَضبة ... خفت لها أعلامُ[1] برقة ثهمد[2]
رعشَن الأكف طوائشاً أحلامهم ... مِيلَ الرِّقاب الغلب ساقطة اليد
فالمشيُ همسٌ والنداءُ إشارَة ... والطرفُ بينَ مُصوِّب ومُصعِّد
جاؤوا به وطوَوه في ملحودة ... دانت لها هامُ السُّهى والفرقد
في معهدٍ ودَّ الأثير لو أنّه ... أمسى ثرًى لجناب ذاك المعهد
كم قيل لا تبعُدْ وليسَ بنافع ... فيه مقالةُ واجدٍ لا تبْعُد
أمنارَ هُلاكِ الطريقِ لغايةٍ ... قد أشكلت ورشادَ كلِّ موحِّد
ماذا أقولُ وأنت واسطةُ النُّهَى ... والناسُ خلفك في مَسِيركَ تقتدي
والطرف معقودٌ عليك طماحهُ ... وإليك نومي باللواحظ واليد
وإذا تشابهت المناهج للهدى ... في خطة فلأنت أهدى مُرشد
ولأنت نهجُ الله بين عباده ... مَنْ راح ينهجُ في سبيلك يهتدي
قامت بك السُّننُ القويمة وارتقت ... فيك الفرائضُ ذروة لم تصعد
وبك الشريعة قد رست أركانها ... والدّين يخطو كالفنيق[3] المُزبد
نظر الإله لخلقه فرآك منْ ... أهدى البرايا في الأمور وأرشد
فحباك في ما فيه حابى رسله ... فنهضت فيه قائماً لم تقعد[4]
وصدعت بالأمر الذي حُمّلته ... تقفو به أثَرَ النبيِّ محمَّد
فاسلم لهذا الدين تشرع نهجه ... والناس تنهلُ منك أعذبَ مورد

(١) الأعلام: الجبال.
(٢) برقة ثهمد: موضع.
(٣) الفنيق: الفحل المدلّ بنفسه لا يؤذي ولا يركب لقوته وتميزه.
(٤) أعطاك ما أعطى رسله فالعلماء ورثة الأنبياء.

وسقى ثرًى قد ضمَّ مهديّ الهدى عفوٌ تصوَّبَ من لطيف أوحد
لا زالَ تنطفُ فوقه قِطعُ الحيا بمجلجل[1] فيه يروح ويغتدي

الثالث: تربية النفس، وتزكيتها من الشوائب التي تنمو بشكل تدريجي عند الإنسان، كالأنانية والحسد، فالسيد محمد رضا، لم يكن مجرّد عالم ارتقى في سلم إصلاح النفس، وإنّما بلغ مرتبة المربي والموجه، وهذا ما ظهر في كتابه (السمكيّة)، الذي صنفه بسبب قصة حدثت معه، وهي: أنّه ذات يوم قرّر مع مجموعة من الأصدقاء، أن يتناولوا غداءهم (سمكاً) مقلياً، وطلبواإلى من له خبرة بالأسماك أن يشتريها لهم، ويدفعها للنسوة كي يحضرونها للغداء، وإذا بجماعة عرفوا بالأمر، فأرسلوا إلى ذلك البيت المشرف على تحضير الطعام، ليأتي به، وأوهم صاحبة المنزل، أنّه مرسل خلف الغداء، وبالفعل أخذوا الطعام وأكلوه.

ما حدث لم يزعج السيد محمد رضا بأنهم أكلوا طعامهم، بقدر ما رأى في هذا التصرف عنواناً يؤشر لمرض عضال على صعيد النفس، حيث تدخل تحته عناوين مختلفة، من الأنانية وحبّ الذات، وهذه الصفات يجب أن تكون بعيدة عن طالب العلم، وتتنافى مع بلوغ المراتب السامية في العلوم، إذ يجب أن تتماشى مع كمالات النفس وصفائها، وبدونها لن يحقق صاحب المقام العلمي مراده.

لهذا بادر ـ رحمه الله ـ إلى تصنيف كتاب سمّاه (السمكيّة) نسبة إلى القصة التي حدثت، وأراد منها أن تكون معبراً، لمشروعه الإصلاحي والتربوي، وليلفت نظر طلاب العلوم الدينية إلى هذه الحقائق التي لا يجوز أن يغفل عنها طالب العلم.

كتاب السمكيّة

أراد السيد فضل الله أن تكون حادثة (السمك)، معبراً لطرح مشروعه الأخلاقي والتربوي، بأسلوبٍ يُحاكي النفس الشيطانية، إذ لا يكفي في عملية التغيير الذاتي

(١) المجلجل: السحاب الراعد المطبق بالمطر.

التذكير بالآخرة، من خلال عرض الآيات والروايات فقط، فهذا النمط يحتاج كما الحديد (المتصدئ) إلى حفّ وطلاء. فالطلاء على الصدء، يغطيه لمرحلة محدودة، ويُعطي صورة عكس الحقيقة، وسرعان مايتبدل المشهد، ويعود الصدء إلى الظاهر، كذلك النفس التي عاشت فترة طويلة على الذنوب، أو لم يلتفت أصحابها إلى تربيتها وتأديبها، فإذا لم تُطعه نفسه فيما يُحب، فيجب عليه أن يمنعها عمّا ترغب، عقاباً لها وتأديباً. لذلك أراد السيد محمد رضا ـ رحمه الله ـ أن يكون كتاب السمكية إطار مشروع تربوي يُعالج هذا الإنحراف، ويضع له البدائل، كي يتمكن طالب العلم بالتحديد، من الوقوف على مخاطر إهمال النفس، أو الإستهانة بهذه التصرفات التي تكشف عن وجود مكان عميق لمكائد الشيطان فيها، وما علينا إلّا التنبه واليقظة قبل فوات الآوان، فنحن ـ لا سمح الله ـ إذا كنا عاجزين عن تربية أنفسنا في الحوزة العلمية، التي ليس فيها مغريات دنيوية، وأصحابها بعيدون عن الشهوات وحب الذات والأنانية، فكيف سيكون مصيرنا في الأماكن التي تكون مليئة بمكائد الشيطان؟ ولهذا نلاحظ علماء الأخلاق وقبل أن يدلوا بِدَلوهم، كانوا قدوة في السلوك والتطبيق، كي تكون الأفكار التي يطرحونها مؤثرة، وتجد لها أُذناً صاغية، مضافاً، أنهم لم يقتصروا في مواعظهم على عرض الأحاديث الشريفة، وإنما كانوا يعرضون المشكلة وحكمها الشرعي، ثم يطرحون العلاج للمريض، كي يتمكن هذا الغافل من معالجة مشكلته، والوصول إلى النتيجة المرضية.

ولم يقتصر السيد فضل الله على معالجة المشاكل الأخلاقية، وإنما نراه يتصدى لمعالجة العديد من العناوين الدينية والسياسية والإجتماعية، وهذا يكشف عن إحاطة هذه الشخصية بكل هذه العناوين، وأنّه يصلح ليكون العالم القدوة والمربي والموجه، ومن المواضيع التي عالجها، نذكر:

إصلاح المؤسسة الدينية، التي تضم كبار الفقهاء وأساتذة الحوزات العلمية، والمبلغين.

وعلى طول التاريخ كانت تتحمّل هذه المؤسسة أعباء جسيمة في حفظ ونشر كلّ ما

هو متعلق بهذا الدين. من نشر الفقه والحديث والتفسير إلى العلوم المختلفة، أو ما يصل إلى حدود الأمر بالجهاد أو إضرام الصلح.

هذه المؤسسة كانت، ولا زالت تُعاني الكثير من المشاكل، وكان العلماء المخلصون الذين يمتلكون وعياً مبكراً، يُقدّمون مبادرات علّها تدفع في عملية الرقي والتقدم. فالسيد محمد رضا الذي وصل إلى مكانة عالية في العلم وصفاء النفس والوعي، كان من أولئك القلة الذين التفتوا إلى ضرورة تحصين هذه المؤسسة، وتبيين ما هو مطلوب منها، ويمكن تلخيصها بالعناوين التالية:

الحث على طلب العلم، وهو من العناوين الأساسية في طريق الإصلاح، فمع عدم وجود طلاب علوم دينية، ينتفي مشروع الإصلاح، ويصبح سالب بانتفاء الموضوع، والذي دعاه للحث على طلب العلم، المرحلة التي ابتعد فيها الناس عن طلب العلم، وزهدوا فيه، بسبب الأوضاع التي وصلت إليها المنطقة، ولهذا كان الحث على طلب العلم الذي قد يتحوّل من واجب كفائي إلى واجب عيني، عندما يتوقف طلب العلم على من يجد في نفسه الأهلية لهذا المقام، ولعلّ السيد محمد رضا كان يرى في التعبير (شعراً)، أنه الأكثر بلاغة وتأثيراً، وخصوصاً في تلك المرحلة التي كانت القصيدة تنتشر بسرعة أكثر من النثر. وممّا قاله في هذا المجال:

ألا حثَّا إلى أرض الغريّ رواحلَ مثلَ أعواد القسيّ
وأشوالاً نوافخَ في بُراها خوارقَ كلّ شعب مجهليّ
ألا هيَّا بهنّ وجاذباها خطاماً مثل أشطان الرَّكيّ
ألا اعتسفا بها المومأة حتى تحلَّ بذروة الشَّرف القصيّ
ألا انتصبا حساماً راح أمضى وأقطعَ من حدود المشرفيّ
فما هذا القعودُ على الأماني أليس زناد عزمك بالوريّ؟
وما دار الهوان بدار حرّ إذا ما كان بالأنِف الأبيّ
وما الأقدار طوع يديك حتى تقول الصبحُ أو غلسُ العشيّ

ألا فاصرف بنابك واقتعدها نجائب مثل منعطف الجنيّ
ألا فانهض فليس المجد إلا لمغوار ومقدام جريّ
ألا فارم الفجاج بها ودعها سوانحَ بين عاملَ والغريّ
وفي مغناه أطلقها سراحًا ترود بناظر الزّهر الجنيّ
محرّمة على سبع وطير بغاث أو عقاب قشعميّ

أيضاً، هناك رسالة أرسلها السيد محمد رضا إلى أحد إخوانه يحثه فيها على السفر إلى النجف الأشرف لطلب العلم، ومما جاء فيها:

« كبا بنا جواد الأيّام برهة فأوقفنا عن الجولان في حلبات طلب العلم الشريف بسبب بعض العلماء، وكنا نؤمِّل أنْ نحضرَ عليه بعد أن أتى من العراق إلى الجبل، فكنا بحضوره أشدَّ تعطيلاً من زمن غيبته، إذ اشتغل وأشغلنا بأمر دنياه، وما يحتاجُ إليه من الدَّراهم والدُّر، فكتبتُ إلى بعض الإخوان أحرِّضه على الهجرة إلى النجف الأشرف إذ عيلمُ العِلم به يطفو عُبابُه وذلك سنة ١٣٠٨ للهجرة»، وكأنه يشير إلى مرحلة ما بعد الشيخ موسى أمين شرارة، حيث لم يقم البديل بكل المهام التي أطلقها الشيخ موسى شرارة، وإنما اكتفى بالتبلّيغ الديني، من الوعظ والإرشاد وإصلاح ذات البين، إلخ.

التواضع مع الإخوان، من العناوين التي حثَّ عليه الإسلام، بين عموم المؤمنين، لما فيه من مصلحة عامة وتظافر جهود، وتأكيد على المشروع الإنساني الذي جعله الله خليفة في الأرض، وهذا يكون بين أهل العلم بشكل أكبر، لما ألقي على عاتقهم من مسؤوليات جسام، وهذا التواصل يَحثُّ على العمل، ويُنبّه من التقصير أو القيام بالأعمال الخاطئة، وكما قيل: الإنسان ابن بيئته، وهذا التواصل ضروري في الحث على تحمل المسؤولية. وهنا نلاحظ القصيدة التي أرسلها إلى أحد إخوانه العلماء، يُهنئه فيها بذهابه إلى الحج، وفي الوقت الذي يمتدحه فيها، ويُطالب أن يَكون هكذا نماذج من الأصدقاء، ويحثّ على التواصل مع الإخوان، في نفس الوقت، يُحذّر من الأصحاب الذين يظهرون المودة ويضمرون الكيد والحسد، ومما قاله:

تمنّيت من دهري خليلاً مصافياً ... كأنيَ كلَّفت الليالي المحاليا
فكم من أخ تلقاه كالسّيف مرهفاً ... إذا أنت قد جرّبته راح نابيا
يريك واداداً ظله يغمر الورى ... إذا ما به استظلت أصبحت ضاحيا
وروضاً بنوّار المودّة مزهراً ... إذا رمْت منه القطْف تلقاه ذاويا
وبرقاً إذا استمطرته راح خلباً ... ونوءاً غدا في غير واديك هاميا
مشارع ودّ رنقتها طباعه ... أبَيْت الرِّوى منها وإن كنت صاديا
وما المرء كلُّ المرء إلا ابنُ نجدة ... يعاف الرِّوى ضنْكاً وإن كان ظامياً
بصيرٌ بأخلاق الزمان وأهله ... يراها بعين الفكر غيباً كما هيا
فكم لابس ثوبَ العفاف وتحته ... إذا ما رفعتَ الثَّوبَ تلقى الدواهيا
وآخر لو فتشتَ أسرار قلبه ... لطابق منه السرُّ ما كان باديا
وراح فريداً في صفات لو أنّها ... تُجَسم للرائي لكانت دراديا
يغضّ عن الأقذاء جفنّا لأنّه ... يرى الداء قد أعيا الطبيب المداويا
إذا الداء أمسى للنُّفوس دواءها ... فهيهات أن تلقى لذي الداء شافيا
ومن أعظم البلوى على الحرّ أن يرى ... مناقبَه الغرّا تعَدُّ مساويا

قرار العودة إلى جبل عامل

لم يكن قرار العودة إلى جبل عامل، بعد إنهاء الطلاب لقسط مُعتدٍ به من العلم، زهداً بالنجف الأشرف، بما تُمثل من رصيد معنوي كبير، حيثُ تضمّ ذلك المرقد المقدس لوصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وتأثير ذلك المقام على الروح المعنوية والتربوية لدى الطلاب، مضافاً لوجود الحوزة العلمية ولذة الإنخراط بها، والحصول على المراتب العلميّة التي تُمكّن الطالب من كسب أكبر قدر ممكن من العلوم الفقهية والأصولية والفلسفية، وعلم الكلام والحديث، وهي تختلف عن بقية المراكز الأكاديمية، حيث يشعر الطالب في النجف بأنه كلما ارتقى في العلم درجة، ارتقى في بلوغ تربية النفس والقرب من الله مثلها.

هذا العشق للنجف الأشرف، لم يُلغِ شعور الطالب بالمسؤولية الكبرى اتجاه جبل عامل، وكأن نية العودة إلى جبل عامل، تنمو في ذهن الطالب منذُ لحظة وصوله إلى النجف، لما لجبل عامل من أهمية لا تقل عن بقية المراكز العلمية والمناطق ذات الصلة بالنهضة العلمية والأدبية، التي تُشكّل بمجموعها، الإطار الذي يحمي مدرسة أهل البيت عليهم السلام، والمدافع عن حياض الإسلام وحماية المسلمين.

إذاً، قرار العودة لم يكن مسؤولية شخص محدد، أو في زمان مُحدّد، إنّما هي سيرة علماء هذا الجبل إقتضت ذلك، منذ اليوم الذي عاد من مدينة (الحلّة) ذلك الفقيه الكبير الشيخ محمد بن مكي الجزيني المعروف بالشهيد الأول، في أواسط القرن الثامن للهجرة، واستطاع أن ينقل جبل عامل من مرحلة حضور لبعض العلماء فيه، إلى مركز علمي، صار يضاهي المركز العلمي لمدينة الحلّة، وهذا ما قاله الحرّ العاملي في (أمل الآمل): «أنّه صلى على إحدى الجنائز في إحدى القرى في عهد الشهيد الأول، سبعون مجتهداً»[1].

بناءً على هذا تكون، العودة إلى جبل عامل مسؤولية شرعية تقع على عاتق هؤلاء العلماء، وكان يشجعهم على ذلك فقهاء النجف، لما لجبل عامل من مكانة متقدمة لدى هؤلاء الأعلام.

في سنة ١٣٢٠هـ /١٩٠٢م، عاد السيد محمد رضا من النجف الأشرف إلى قريته (عيناثا)، وكُلّ همّه مواصلة ما قام به السلف الصالح من النهضة العلمية والأدبية، مضافاً للتبليغ الديني من وعظٍ وإرشاد، وإحياء مناسبات، وتعظيم الشعائر الحسينية، بما تُشكل بمجموعها عنوان المحافظة على جبل عامل، كحاضرة علميّة، وعلى مكوناته الإجتماعية، التي تضمن له البقاء والإستمرارية، والصمود أمام الأعاصير المحدقة به من كلّ حدب وصوب، وخصوصاً أن الحضور العثماني لا زال جاثماً بكلّ جشعه وأطماعه، ومرارة النكبة التي صنعها العثمانيون، وتداعياتها لم تنتهِ بعد، وهناك

(١) محمد بن الحسن الحر (الحر العاملي)، أمل الآمل، ج١، ص١٥.

الخشية من تكرارها في أي لحظة هم يقرّرون ذلك، ولعلّ هذا الذي منع علماء تلك المرحلة من الإنصراف الكامل إلى التدريس والتصنيف، كما كان في مرحلة ما قبل النكبة، فالمسؤوليات كبيرة، والإنصراف إلى الشأن العام، ومعالجة المشاكل الإجتماعية والإقتصادية، هو الهمّ الأكبر لدى علماء تلك المرحلة، فكانوا يقتصرون على تدريس الطلاب المقدمات، وربما السطوح، ثم يرسلونهم إلى النجف الأشرف لاستكمال تحصيل المراتب العليا.

بقي السيد محمد رضا في (عيناثا) خمس سنوات قائماً بكل هذه الوظائف الدينية، حتى دعاه الواجب إلى تركها والتوجه إلى بلدة (قانا)[1]. إذ لم يُلزم العلماء أنفسهم بالبقاء في قراهم وبين أهلهم، وإنما كانوا يتواجدون حيت تقتضي الحاجة، سواء التنقل داخل الوطن أو السفر إلى خارج البلاد، كما فعلوا في سوريا، والعراق، واليمن، وإيران، ومصر، وفلسطين، ومكة المكرمة، والهند. وهنا أُقدّر عالياً عوائلهم الشريفة، التي لم تمانع أو تعرقل لهم هذه المهام والتكاليف الإلهية، وعلى سبيل المثال: أن يترك الشيخ حبيب آل إبراهيم (المهاجر)، بلدته (حناويه) الجميلة، ويسكن بعلبك في ذلك الزمن، لا يمكن أن يقوم بهذا العمل إلّا من امتلأ قلبه إيماناً، ولم تعد هناك مساحة للحسابات الشخصية في نفسه وعند عائلته[2].

(١) قانا: قرية من قرى جبل عامل، تتبع لقضاء صور، ومحافظة لبنان الجنوبي، ترتفع عن سطح البحر حوالي ٣٠٠م، فيها مجلس بلدي أنشئ سنة ١٩٥٠م، وكانت في القديم إحدى مقاطاعات جبل عامل الثمانية، اتخذها الشكريون، مدّة حكمهم الإقطاعي إحدى قواعدهم. وفي قانا نكل علي الصغير الوائلي الذي ينتسب إليه آل الصغير بمن كان منهم ـ الشكريون ـ وذلك أثناء اشتغالهم بأعراسهم وذلك يعود لثأر قديم بينهمفي قانا الكثير من الآثار القديمة، كالآثار الفينيقية والآثار الرومانية. فيها من العلماء الشيخ بدر الدين الصايغ. وفي قانا عائلات إسلامية ومسيحية، أبرزها: آل أيوب، آل الخوري، آل الحداد، آل سعادة، آل جبور، آل علي الصغير، آل البرجي، آل عطية، آل صائغ، آل حمود.

(٢) الشيخ حبيب بن محمد بن الحسن بن إبراهيم المهاجر العاملي المتوفى سنة ١٣٨٤هجرية، كان عالماً كبيراً، وأديباً جليلاً، ولد في (حناويه) في جبل عامل سنة ١٣٠٤هـ، ونشأ فيها، فقرأ مبادئ العلوم، ثم هاجر إلى النجف الأشرف، وحضر على شيخ الشريعة الأصفهاني والشيخ علي بن باقر الجواهري والميرزا محمد حسين النائيني ، والسيد أبي الحسن الأصفهاني وغيرهم. له من المصنفات: الإسلام في معارفه وفنونه ـ الإنتصار ـ الجواب النفيس ـ الحقائق في الجوامع والفوارق وغيرها.
السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل، ص ٢٧٥
الشيخ سليمان ظاهر، معجم قرى جبل عامل، ج ٢ ص ١٨٤ .
الشيخ إبراهيم سليمان، بلدان جبل عامل، ص ٣٣٧.

ففي سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م، انتقل السيد محمد رضا فضل الله إلى بلدة (قانا)، وسكنها إلى أن توفي فيها، بعدما طلبه أهالي البلدة والجوار ليكون إمامهم، فيصلح شأنهم ويعلّمهم أحكام دينهم، ويُحيي المناسبات الدينية، وبالتأكيد لم يقتصر في عمله على الوعظ والإرشاد فقط، وإنما تصدّى لشؤونٍ عامة. ففي تلك المرحلة كان جبل عامل، يقترب من ذلك المخاض العسير الذي بدأت فيه إرهاصات الحرب العالمية الأولى، وما رافقها من آلام ومصائب، لامس معها الناس الأمراض والجوع وعدم الإستقرار، ولم تنته هذه الألام بنهاية الحرب سنة ١٩١٨م، وإنما نتج عنها قيام الإنتداب الفرنسي على سوريا ولبنان والإنتداب البريطاني على العراق وفلسطين، واستمرت هذه المعاناة إلى ما بعد الإستقلال الموهوم، وجاءت النكبة على فلسطين في أيار ١٩٤٨م، ولا زالت المنطقة تعيش تداعيات تلك النكبة إلى يومنا هذا.

وشاء القدر أن يعيش السيد محمد رضا مرحلتين، كانتا قاسيتين على أهالي جبل عامل: إرهاصات الحرب العالمية الأولى، وما رافقها من حكم السفاح (جمال باشا) الذي أعاد إلى الأذهان تلك المرحلة القاسية التي عاشها جبل عامل، في عهد الوالي العثماني المجرم (أحمد باشا الجزار)[1]، والمرحلة الثانية هي الحرب العالمية الأولى التي نشبت سنة ١٩١٤م، واستمرت أربع سنوات.

السيد عبد الحسين شرف الدين، أشار في كتابه (بغية الراغبين) إلى تلك المرحلة القاسية التي عاناها العلماء والناس في جبل عامل، جراء السياسة الوحشية التي مارسها الوالي العثماني على بلاد الشام السفاح جمال باشا، حيث قال: « وقع العالم بأسره ـ من هذه الحرب ـ في كبد واختصت سوريا ولبنان وفلسطين بويلات جمال باشا

(١) أحمد باشا الجزار (١٧٣٤ـ ١٨٠٤م): كان حاكماً لساحل فلسطين والشام لأكثر من ٣٠ سنة، ولد في البوسنة لأسرة مسيحية ثم هرب إلى القسطنطينية بسبب ظروف عائلية أو جريمة قتل كما يرجح المؤرخون، ووصل إلى الباب العالي من خلال أحد تجار الرقيق الذي قام ببيعه له، تسلم ولاية (عكا) وكان قاسياً ظالماً لا يعرف قلبه الرحمة أبداً، ذاق منه العامليون الويلات بعد مقتل الأمير ناصيف النصار في وقعة (يارون)، حيث قام بقتل الناس وتهجيرهم، فحرق المكتبات وقتل العلماء وأسر بعضهم، ولم يسلم من أذاه الحجر.

ـ قائد الجيش الرابع الشاهاني ـ إذ استشعر منها ميلاً إلى الحرية والاستقلال، فهمه في انتقامه متجاوزاً في ذلك كل أحد.

وقد أمعن في تجنيد الرجال، وسوقهم إلى ميدان القتال، حتى لم يبق إلا المرأة والصبي والشيخ الهرم والضرير والزمن ومن هو في حكمهم، وقام في ذلك على ساق، يسوق الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم بعصا واحدة، فكانت الرّوعة شديدة، والهول هائلاً، وركب رأسه في جباية الأموال باسم الضرائب والإعانات والتبرعات سلباً ونهباً بأفظع صور النهب والسلب، ونصب المشانق، وصوّب البنادق لإعدام من يفرُّ من التجنيد، فكان ـ الأونباشي ـ من الدرك يملك قتل من يشاء ممن يزعم فرارهم، لا يسأل عن ذلك أبداً.

ورمى البلاد بالمجاعة المدقعة إذ قطع الميرة عنها، فقلّت الأقوات، وغلت الأسعار غلاء عظيماً. فكان الفقراء يطوون اليوم تلو اليوم، فتراهم خاوين مرسبين حتى ماتوا جوعاً، وكانت الموتى مطروحة في البيوت وفي الشوارع العامة وفي البراري لا يؤبه بها.

وأرصد المجلس العرفي في عاليه، وما أدراك ما فعل ذلك المجلس، ونبرأ إلى الله تعالى مما ارتكب، وعلّق بمشانقه في دمشق وبيروت أربعين زعيماً من زعماء الأحرار في البلدين، وجاء بكل سوءة شنعاء، ومعرة دهماء، ملء الأرض والسماء...»[1].

في تلك المرحلة، كان للسيد محمد رضا ولإخوانه العلماء دورٌ كبير في التخفيف من آلام الناس، ومعالجة الأوضاع الإقتصادية التي لامس معها الناس حدود الجوع، وكان الفقراء منهم، ليس لهم ملجأ بعد الله تعالى، إلّا العلماء الذين عملوا مع الميسورين على حلّ المشاكل الممكنة، من خلال الأخماس والزكوات، مضافاً لتثبيتهم في أرضهم، من خلال تعميق علاقتهم بربهم عز وجل، فكان وجود هؤلاء العلماء بين ظهرانيهم يُعطيهم الأمل والطمأنينة.

(١) السيد عبد الحسين شرف الدين، بغية الراغبين، ج٢، ص١٣٩.

ومع كل هذه المراحل التي عاشها السيد محمد رضا من ضنك العيش في النجف الأشرف وجبل عامل، لم تُثنه عن القيام بكلّ ما أمكن من التوجيه والإرشاد والتصنيف، وإطلاق العنان لقصائده، التي ساهمت في النهضة الأدبية واللغوية وأرخت لبعض المحطات الأساسية في تلك المرحلة، كما كانت له مشاركات سياسية واجتماعية وفي مناسبات مختلفة، فعندما توفي العلامة الشيخ موسى أمين شرارة، رثاه السيد محمد رضا، نثراً وشعر، وممّا قاله شعراً:

خليليَّ هل ما فرَّق الدَّهر جامع ... وهل فائتٌ في ما يؤمَّل راجع
وهل ينظم الشَّمل الشتيت كعهدنا ... ويجمع مابين الأخلاء جامع
خليليَّ نوحا أسعداني على البكا ... ولا تعذلاني في الذي أنا صانع
فلا قلبَ لي حتى يعيَّ عذلَ عاذل ... وها مسمعي قد أوقرته الفجائع
فطرفي سفوح والفؤاد يمدُّه ... كشؤبوب ودق وبْله متتابع
أكفكف دمع العين ثمَّ أردُّه ... إليها فطرف العين في القلب دامع
ونفسي قد طارت شعاعاً من الأسى ... لزفرة همٍّ لم تسعها الأضالع
أهيمُ ولا أدري إلى أين أنثني ... كأنّي ضليلٌ في المهاجر ضائع
أجوب الفيافي نفنفاً بعد نفنف ... وأذرع عرض القفر والقفر واسع
عشيّة بلتني الدُّموع من الجوى ... لداهية تصطكُّ منها المسامع
خليليّ كم من نكبة إثر نكبة ... تزول لها شمّ الجبال الرَّواتع
غداة نعى النَّاعي بمن حلَّقت به ... مكارم عن إدراكها الطَّرف راجع
مجيب إلى الدَّاعي لكلّ ملمَّة ... إذا راعه من سطوة الدَّهر رائع
وهضبة مجد لا يرام منالها ... وسيف إذا ما هزّه الحقّ قاطع
سحاب ندىً في كلّ عام وأزمةٍ ... ونور هدًى في جبهة الدهر ساطع
إذا ضمّه دست الفخار بمعشر ... أشارت إليه بالأكفّ الأصابع

وما رام شانيه السّباق بحلبة ... إلى غاية إلا انثنى وهو ظالع[1]
لقد كان للإسلام أحرز معقل ... إذا ما رمتهم بالخطوب القوارع
إذا ما السُّنون الشهب صوّح نبتها ... فراحته فيها سيولٌ دوافع
جلا ظلمات الجهل عن واضح الهدى ... فضوءُ سناه في سما الدين ساطع
بثاقب آراء وأبعد همَّة ... تريك بظهر الغيب ما هو واقع
دعاه إله العرش للخلد فانثنى ... إليها فلبّى وهو لله طائع
فأصبح قلب الدِّين يخفق واجباً ... عليه ووجه الدَّر أقتم سافع
فيا بهجة الدُّنيا وزهرة سيبها ... وروضاً به زهر الفضائل يانع
تقطَّع قلبي يوم سرت لخطَّة ... ولا قلب إلا من مسيرك جازع
لقد أغمدت منك الليالي مهنداً ... به كان يجلى الخطب والخطب واقع
لقد غيَّبت منه الصَّفائح ماجداً ... مآثره كالزّهْر بيض نواصع
رحلت حميد الذِّكر مجداً وسؤدداً ... ووجهك وضَّاحٌ وجدُّك ناصع
فمن ذا على الإسلام خلفت والهدى ... ومن ذا لشمل الدِّين بعدك جامع
فقدناك يا موسى ونحن على ظمًا ... ولا شرب إلا ورد حوضك ناقع
فقدناك فقدان الثَّرى وبلَ مُزنة ... تجلَّت وفي أنوائها الرَّوضُ طامع
ومالي لم أستسقِ للقبر مزنة ... وهطَّالة وكَّافها متتابع
فكيف وفيه البحر يطفح موجه ... ومن فيضه ودق السَّحائب هامع[2]
سأرثيك جهدي ما استطعت على المدى ... وأبكيك دهري كلَّما حنّ ساجع
بكتك القوافي بالقوافي مع الورى ... فهنّ على كرّ الدُّهور سواجع
لقد شغفت فينا الليالي فكم سرى ... لها كلَّ آن كاهل ثم يافع
وقلبت أحوال الزمان فلم يكن ... لسطوته شيءٌ سوى الصبر نافع

(١) ظالع: ضعيف لا يقوى على السباق.
(٢) هامع: منهمر.

وتحدّث عن الشيخ موسى أمين شرارة نثراً، حيث أراد من خلاله أن يُبيّن عظمة الخالق، وأهمية الرسالة السماوية، ومكانة النبي الأعظم ﷺ، وأهل بيته الأطهار عليهم السلام في رعاية البشر وإدارة شؤونهم، وكيف ورث العلماء هذه المهمة الشاقة والصعبة. وأن هؤلاء الأعلام لو لم يتصفوا بالعلم والزهد والتواضع، وكل الملاكات الموجبة لنقاء النفس، لما أمكنهم تبوء هذه الدرجات والتصدي لهذه المهام، وبعد ذكر الأوصاف التي يجب أن يتصف بها العلماء شرع في تطبيق ذلك، على من له الفضل على جبل عامل العلامة الشيخ موسى أمين شرارة. إذاً، هو أراد أن يظهر مكانة الشيخ موسى شرارة، وفي نفس الوقت يوجه من خلاله رسالة للعلماء بالانتباه إلى مكانتهم وإلى الناس بوجوب طاعتهم وحرمة مخالفتهم، وممّا قاله نثراً:

«أما بعد فإنّ الله قد أحاط بالأشياء علماً قبل تكوينها، ومعرفة قبل إبداعها وتصويرها، فأنشأها على مقتضى حكمته وإتقان صنعته. فخلق هذا الخلق، واختبرهم بسلوك مناهج الحق من بعد أن أدلى لهم بالحجّة، وأبان لهم عن واضح المحجّة، فاختار لهم الإسلام ديناً، واصطفى لهم من عباده أولياء دالين عليه ومرشدين إليه. إلى أن انتهت النواميس الإلهية، والشرائع الربانيّة إلى نبيّنا نبيّ الرحمة ﷺ، وقائد الأمّة على فترة من الرسل، ودروس من الدين وانقطاع من الوحي، فأعذر وأنذر ونهى وحذّر، وأقام الحجج البالغة والمعجزات الباهرة، لئلا يكون للناس على الله حجّة. ثم بعد انقضاء النبوّة ومن كان بعده في صدر الإسلام، كان قوام الدين ونظام أمر المسلمين في أيدي العلماء العاملين، والأخيار الزاهدين مناهج الحق ودلائل الصدق، تنقشع بساطع أنوارهم غياهب الجهالة، وتنجلي بمصابيح حكمهم ظلم الضلالة والغواية، حفّاظاً لنواميس شريعته، وهداة لظلال خليقته، منارة في أرضه وحجبه على خلقه، قد أفنوا في مرضاته نفوسهم وأذابوا جسومهم، فأحلّوا حلاله وحرّموا حرامه، وأقاموا الحدود وبيّنوا الأحكام، فغدى بهم الإسلام رفيع الدعائم ثابت القوائم، مجتمع شمله منتظم شتاته، ولولاهم لأدّى حبل الأمة إلى الاضطراب ودينها إلى الذهاب، فمن

ثمّ كانت رزيتهم أعظم الرزايا، وبليتهم أفظع البلايا، فإذا دهم أحدهم ريب المنون وعاجلُ القضاء الذي لا مردَّ له، ثَلِمَ في الإسلام ثَلْمٌ لا يسده قيام عالم غيره إلى يوم القيامة، لأنّه بفقد العلماء فقْدُ الدين واضطراب حبل المسلمين، وإنّ أحقّ الذاهبين في استعظام مصابه وفقده وإيابه، وأن يكون حزنها عليه سرمد والثكلُ بمأتمه مؤبّد، من أفنى نفسه بالمراقبة، وأنصب بدنه في المحاسبة، وأسهر عينه في طاعة ربّه، وأطال فكره في عز دينه وإقامة كتابه واتّباع سُنّته، سيّما مصباح الهدى وعلم التقى حبل الله المتين وحكمه المبين، العَلَم العلّامة والحبر الفهامة، ركن الدين وعماد المؤمنين، المرحوم المبرور المقدس الشيخ شيخ موسى شرارة العاملي تغمده الله برحمته وأسكنه أعلى غرفات جنته، وأفاض عليه من شؤبوب[1] الرضوان عذباً سلسبيلا وسلك به مناهج العفو والرحمة جادّة وسبيلا. فلقد كان بعيد الغاية طويل النهاية، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، تتفجّر ينابيع الحكمة عن لسانه، وتزهر مصابيحها لأهل زمانه. معرضاً عن الدنيا وزهرتها، منحرفاً عن ملاذها وبهجتها، يُصَدقُ الفعل منه القول. كلّ ما سوى الله عنده عدم، وما في الكون خيال أو وهم، غفلاته ذكر وذكره شكر. يرى أنه إن جاء يوماً بغفلة هي الكفر أو وقد كان من دونها الكفر، تجرّدت نفسه عن كثافة هذا الجسم ولحقت بعالم الملكوت، فكادت أن ترفع له حُجُبُ العزّة والجبروت.

بحر عرفان لا ينزف وحديقة علوم لا توصف، ماذا عسى أني فيه أقول: إلا أنه مزج العلم بالحلم والعفو بالقدرة، والجلالة بالهيبة والوقار بالسكينة والغنى بالعفّة، فكان قيد النواظر ومهوى البصائر. مجالسه بالسيادة معمورة وبالوقار من دون التِّيه[2] مغمورة، لا تطيش أحلامه ولا تتشعّب أوهامه، لا يخرجه الغضب عن حدّه ولا الهزل عن جدّه. حلّ من الشرف وسطاً، وأقدم في الأمر فرطاً، صارم عند الشدائد والأناة، وعفوٌّ عند تزايد الجرم وتكاثر الهناة، أصاب من المجد لبابه ومن عنصر الكرم أطيبه، حديثه كلّ عن

(١) شؤبوب: الدفعة من المطر.
(٢) التّيه: الصّلف والكِبر.

مغزاه كل مديد بعيد مناط الهمة، ومنحاه غير بعيد، ثهلان طما[١]، والقدر عزما، أنف الكرم ومخ الأمم. نجم عند تحيّر الدليل، وبدر لمن فقد النهج والسبيل، كلامه إجادة للفكر وفيض القريحة وعفو الطبع وإصابة حز المفصل، كالسحر الحلال والماء الزلال وبرد الشراب وبُرَد الثياب.

له من كل شيء عقوته[٢] وعنفوان مكرمه، لقد قرب حتى أطع وبعد حتى امتنع، ذكره شفاء المريض وجبر المهيض، وزاد الراحل وبلغة الآمل، وعندما أراد الله تعالى اصطفاءه إليه من دار الغفلة ومواطن الغربة إلى دار لا يزول نعيمها ولا يظعن مقيمها، دعاه فأجاب مطيعاً ولبّى سريعاً، فترك عامل وأهلها نوادب وعيوانها سواكب وأحشاؤها تضطرب وأكبادها تلتهب. إذ زال طودها الشامخ، وعلمها الباذخ، وهُداها إذا أشكلت السُبل وضلّ الدليل، ومأواها من لفحات هجير الدهر وقد عز المقيل، وضحاها إذا اغبرت الفجاج والبلاد، واقشعَرت الربى والوهاد، وقد اسودَّ وجه العام وتواترت نوائب الأيام، والغيث قد أقلع والسحاب تقشَّع، فكم له هناك من وابل جود طويل المدى، وسحائب أيد مهلَّة نبوء الجدى، ومآثر لا تحصى، ومحامد لا تستقصى. فبفقده فقد الدهر غرّته، وطوحت من بعده رياض المعارف والكرم، وانثلم حد الأدب والقلم وغدت ظلال الهداية دارسة، وأغصان الجهالة بالفيء مائسة[٣]، وربوع المدارس مطموسة الأثر ورياض مبانيها كهشيم محتضر، ولواء العلوم تحطمت معادهن وتبدَّدت أجناده، ولفّ بعد ما كان منشوراً، وانيح[٤] بعدما كان للهداية مشهوراً، ولِبَيْنِه بان حسام الشريعة وثُلم، ومال صدر قناتها وحطُمّ، ولموته تطاولت صروف الدهر، وتنفسّت نكبات العصر، ومدّت أشطان[٥] المنايا إلى ركابها النفوس، وثبت في مناهجها حبائل الغدر، وأخذت

(١) ثهلان طما: ثهلان اسم لجبل ويضرب به المثل للرجل الوقور، وطما بمعنى ارتفع.
(٢) عقوته: ساحته.
(٣) مائسة: متبخترة.
(٤) انيح: تحرك بثقل شديد.
(٥) أشطان: جمع شطن وهو الحبل الطويل الشديد الفتل.

تقضي فيها النذر بعد النذر. فأبقت الدنيا نوائح عليه تتجاوب، وأحشاء الأنام بالأرزاء تتجاذب، مستفرغة العبرات مشبوبة الأحشاء بالزفرات. إذ هوى نجم هداها وخبا زند علاها، وبدْر لياليها قد سامه الخسف وعاجله الحتف، وانتظم شمل الهدى في سلك المنيّة والردى، وتقوّضت عمد المكارم والمفاخر، ونكّست لفقده رؤوس المنابر. فهيّج قرائح الأكباد وأجّج زفرات الوجد بالفؤاد، فأخذ كل أديب إلى غايته طريق وغدى لسانه ينفث بما يحرّك القلب من الوجد والحريق، فلم يبق ذو شعرٍ وأدب ولا متطفلاً إلى هذه الصناعة إلا أنشد وأعرب.

به سلك الناس السبيل إلى الهدى فغاب فعجّت بالمراثي كرامها[1]

وها أنا مورد من آثاره ما يكون لك شاهد، وعلى ما قلته مساعد من مآثر تبهر العقول ويحسر عن إداركها الطرف، وفضائل تعجز عن وصفها الأقلام، وتضيق بطون الدفاتر، وغرر من أشعاره وجملة من زواهر آثاره، وما قيل فيه من المديح أيام حياته، والرثاء بعد وفاته لتلامذته وغيرهم من أهل الأدب والفضل، بعد تاريخ مولده ولمع من أخباره وسيره. إلا أنني وقفت على جُمَل شافية ونُبذ في حقه وافية، قد تضمنت جملة من جميل أخباره، واستوفت شذراً من بعض فضائلة وآثاره، استغنيت بها عمّن سواها لجناب السيد الفاضل والعالم العامل السيد نجيب الدين ابن المرحوم المقدس السيد سيد محي الدين فضل الله الحسني العاملي تغمده الله برحمته، وهو ممن قد تخرّج على يده في جملة من العلوم وفنون الأدب، مؤرخاً بلفظٍ أرقّ من نسمات الأسحار وأعذب من نفحات الأطيار. تزدري بقلائد العقبان[2] ونثار اللؤلؤ والمرجان، ولا عجب فإنه ممن ضرب في الصناعة وغيرها على عرق وجرى فيها على حق، فكان له السبق في كل مضمار وجواز الغاية في حلبات المجد والفخار، وناهيك به من أديب مصقع[3]،

(١) من قصيدة للشيخ موسى شرارة في رثاء الشيخ عبد الله نعمة.
(٢) العقبان: هنا بمعنى الذهب الخالص.
(٣) مصقع: البليغ أو عالي الصوت.

وبليغ مبدع. كلامه في جمل هذا التاريخ عدا عن شعره السائر في الأمصار مسير الشمس رابعة النهار من رصانة لفظه ومتانة معناه يحكي نثر ابن العميد[١] وخطب ابن الحميد[٢]، ولا غرو فإنه ممن ضربت به أعراق النبوّة وجراثيم الإمامة، والشيء لا يعرف إلا بفضله وكل عرق نزّاع إلى أصله وها أنا مورده بتمامه والله المستعان».

خلاصة ما يمكن قوله في شخصية السيد محمد رضا فضل الله:

أنّه عالم جليل جمع إلى الفقه والأصول، الحكمة والفلسفة، والأخلاق، والأدب والشعر، فكان العالم القدوة والموجه والمربي، وكان يمتلك القدرة والحضور، على إبداء النصيحة لعلماء الدين، ولم نجد أو نسمع من ردّ عليه أو اعترض، ممّا يؤكد هيبته في النفوس، وقوة شخصيته، ومكانته العلمية والإجتماعية، التي تؤهله إلى هذا التصدي الواضح، حيث كان يرى وجوباً عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في الأمور الصغيرة والكبيرة، ولم يكن ليُدينَ الآخرين، بل كان ينصحهم، وهناك فرق كبير بين الإدانة والنصيحة، فعندما تُدين أحداً، يبدأ بالدفاع عن نفسه، بينما الجميع يقبلون النصيحة الهادفة والصادرة بشرطها وشروطها. ففي الوقت الذي صنّف فيه كتاب (السمكية) لمعالجة مسألة أخلاقية، هو تصدى لمعالجة أمور كبيرة في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، ثم قام بكل الواجب في جبل عامل، فنهض به مع إخوانه العلماء، على الصعيد العلمي والأدبي والأخلاقي والإجتماعي، ووقفوا مدافعين عن دينهم، وعن شعبهم، أمام الغطرسة العثمانية من دون خوف ولا وجل، وليس لهم معين إلا الله عز وجل، وعندما وجد خطر الغزو الإيطالي يهدد مدينة طرابلس الغرب في

(١) ابن العميد: أبو الفضل، محمد ابن العميد (ت: ٣٦٠هـ/٩٧٠م)، كان وزير ركن الدولة بن بويه، وكان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم، وأمّا الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه، وكان كامل الرياسة، قال الثعالبي في كتاب اليتيمة، كان يقال بدأت بعبد الحميد وختمت بابن العميد.
ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣.

(٢) ابن الحميد: عبد الحميد بن يحيى بن سعد، (قتل: ١٣٢هـ/٧٤٩م) الكاتب البليغ المشهور، وبه يضرب المثل في البلاغة، له رسائل تقع في نحو ألف ورقة. هو من أهل الشام، وكان أولاً معلم صبية، ينتقل بين البلدان، وكان كاتب مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، قتل مع مقتل مروان على يد العباسيين. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٢٨.

ليبيا في شوال سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م، جادت قريحتة بقصيدة، إستنهض فيها همم الشعوب، وحثّهم على مقاومة الإحتلال، ومما قاله:

أثيروها على الطليان حربًا ... عوانا تنهبُ الأرواحَ نهبا
أثيروها وغًى هيجا ضروسًا ... تشبُّ بحومة الطليان شبا
عليهم فاضربوا سور المنايا ... بجيش يملأ الأكوان رعباً
أثيروها أثيروها هياجاً ... فما غير السيوف لهنّ طيبا
لنا إن أرغم الآنافَ ضيمٌ ... عرانينٌ شميمَ الضّيم تأبى
لنا الغارات شاهدة بأنّا ... رأينا الموت في الغارات عذبا
إذا فطم الرضاع لنا وليداً ... على الغارات والغزوات شبا
تميد لبيضنا شمُّ الرواسي ... إذا لمعت بليل النقع شهبا
تحاولُ من مغامدها انسلالاً ... إذا هتف الصَّريخ بهنّ ندْبا
وترقص جردنا مرحاً وتيهاً ... وتهتزّ القنا طربًا وعجبا
فنحن المانعون الجار ضيمًا ... ونحن المانحون الجدب خصبا
ونحن الناهضون بكل عبٍّ ... إذا عصفت بأفق الأرض نكبا
ونحن المالكون الشرق قسراً ... ونحن الغانمون الغرب كسبا
أتعجزنا بنو الطليان قتلا ... إذا احتدم الوغى طعنًا وضربا
بلاد الصين وهي على مداها ... ملأنا صدرها خوفًا ورعبا
ثللنا عرش كسرى في سيوف ... غدا الموت الزؤام لهنّ غربا
سل اليرموك والشَّامات لمَّا ... بها بحر الهياج طغى وعبَّا
تركنا من نجيعهمُ الضواري ... تراوح شربها نهلاً وعبَّا

بهذا الملخص حاولت أن أقدم للقارئ العزيز وللتاريخ، هذه الكلمات بحق العلامة السيد محمد رضا فضل الله، لأقول أنّ ما وصلنا إليه من عزّ وكرامة، لم يكن مفصولاً عن تاريخنا وعن جهاد علمائنا، الذين كانوا الحاضن والمربي والمشجع على استمرار

العلم والمعرفة والأدب في جبل عامل، كي يبقى منارة، تُضيئ لأهلها، ولا ينحصر شعاعها ضمن إطار جبل عامل الجغرافي، وإنما وصل هذا الشعاع إلى كثير من بلاد المسلمين، وتركت أثراً طيباً، فنشروا الفقه والحديث والتفسير، وتصدوا للقضاء وللوعظ والإرشاد والإصلاح، مع أنهم كانوا في بلاد لا يعرفون لغتها، مثل: إيران والهند، وهذا يؤكد على مدى الذكاء والإخلاص، الذي اتصف به علماء جبل عامل، فالشيخ علي الزين[1] الذي هرب من نكبة شحور التي وقعت على أيدي العثمانيين سنة ١٧٨٣م، وذهب إلى الهند، أصبح وزيراً في الحكومة الهندية، ومشايخ جبل عامل كانوا شيوخاً للإسلام في الدولة الصفوية.

إرتحل عن دار الدنيا، أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٧م، ولم يكن يُعاني من أي مرض، فبينما كان يُحيي ذكرى عاشوراء، ويقرأ بنفسه (المقتل) المعروف بتلاوته قبل ظهر يوم العاشر من المحرم، وكان يتأثر كثيراً، إلى حدود فقدان الوعي، على مصاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وما جرى على أهل بيته الطيبين، وفي العاشر من المحرم لعام ١٣٣٦هـ، وبينما هو يتلو المصرع، وقد تأثر كثيراً، سقط من على المنبر إلى الأرض، فحدث معه نزيف بالرأس، مما أدى إلى مفارقته الحياة، عن عمر ثلاث وخمسين سنة، ودفن في بلدة (قانا) من جبل عامل.

ورغم قصر هذا العمر، إلا أنه كان مليئاً بالعلم والأدب، وبركاته لا زالت إلى يومنا هذا.

(١) الشيخ علي الزين (صاحب شحور): ثار على العثمانيين سنة ١١٩٧هـ، بمساعدة الأمير جمزة من آل الصغير، حيث قصدوا تبنين التي كانت مقراً للعثمانيين، فقتلوا المتسلم، لكن الكاتب الأيوبي في القلعة تمكن من الفرار إلى صيدا، فأخبر الجزار بما حصل. فقام الجزار، بإرسال إلى شحور الذي عاث في الأرض فساداً، فقتل ما يزيد على مئتي رجلاً، وأخذ الأسرى، وصلب الأمير حمزة بالخازوق، وأمام هذا الواقع الجديد لم يجد الشيخ علي الزين سبيلاً للنجاة إلا بالفرار خارج جبل عامل، فقصد الهند وصار وزيراً لأحد ملوكها، ونال عنده رتبة، وبقي في الهند حتى وقوعها تحت أيدي الإنكليز، حيث عاد إلى جبل عامل.

الخاتمة:

في خاتمة هذا الكتاب الذي هو عبارة عن جهد مجموعة من السادة الباحثين، حيث بذلوا ما يمكن في سبيل تسليط الضوء على أحد علماء جبل عامل، في مرحلة كانت شبيهة بمرحلة التأسيس التي انطلق بها الشهيد الأول، في أواسط القرن الثامن هجري.

ونحن نكون بهذا الجهد حققنا هدفين:

الأول: تكريم العلامة السيد محمد رضا فضل الله، وتعريف الناس به، من خلال الحديث عن سيرته والإضاءة على مؤلفاته، وهو إحدى الكنوز التي كانت مطمورة، وساهمنا في الكشف عنها، وإبرازها إلى عالم النور، بعدما عتّم عليها ظلم الحكام والولاة، وأمراء الجور، فكشفنا عنها من خلال مؤتمرٍ فكري نظمته جمعية الإمام الصادق عليه السلام لإحياء التراث العلمائي.

الثاني: توثيق هذه الأبحاث والدراسات، وجمعها في هذا الكتاب، كي يبقى وثيقةً على مدى الأجيال، يُستفاد منها، وتَصلُح لتكون مصدراً للباحثين والمهتمين، وأنا باعتقادي، أن جمع جهود متعددة ومعالجة أفكار عديدة حول شخصية واحدة، قد يكون أنفع من جهد شخص واحد، فلكل باحث منهجه وطريقته، وهذا يرفع الملّل، ويُحفّز القارئ على المطالعة. وخصوصاً أن السيد محمد رضا رحمه الله، عالج العديد من

العناوين التي يحتاجها العلماء والناس، وعلى سبيل المثال، نراه عالج:

دور رجل الدين في العمل التبليغي.

دور الفقهاء في التصدي لمنصب الولاية، من خلال القيام بالمهام التي كان سيتصدى لها الإمام المعصوم عليه السلام لولا غيبته.

مشروع الإمامة، ولم يعتمد على إثبات الإمامة من خلال المنهج العقلي، وحاجة الأمة إلى الإمامة فقط، بل عالجها كحاجة إنسانية واجتماعية.

قدم السيد محمد رضا الأدب والشعر، كلغة تخاطُب لإيصال الفكرة، بما ينسجم مع طبيعة تلك المرحلة، وخصوصاً أن الشعر يحفظه الخاصة والعامة، ويُتناقل أكثر من النثر.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا والعاملين للإستمرار بإحياء تراث علماء جبل عامل، وتكريم هؤلاء الأفذاذ، الذين لم يبخلوا يوماً على هذه الأمة، فصرفوا كل وقتهم، وعرّضوا أنفسهم للمخاطر في سبيل نشر العلم والوعي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفهرس

المقدمة ٣

الافتتاحية ١٣

السيد هاشم صفي الدين ١٣

الشيخ عبد الحليم الزهيري ٢١

الشيخ أحمد مبلغي ٢٥

الشيخ حسن بغدادي ٢٩

الأبحاث: ٣٧

أد.طراد حمادة ٣٧

«الفلسفة والعرفان في أدب العلامة الفقيه السيد محمد رضا فضل الله» ٣٧

أ.د سالم المعوش ٤٩

ميزان العدل «السمكية» رحلة إلى الداخل في محاولة سردية ٤٩

«ميزان العدل» بوصفه محاولة سردية ٦٤

الأدوات الفنية في «ميزان العدل» ٦٨

الشخصيات ٧٢

أ. د. أحمد حطيط **٨٥**

«**الإمامة في فكر العلاّمة السيّد محمد رضا فضل الله الحسني**» ٨٥

أولاً: مدخل ٨٥

خاتمة ٩٧

الشيخ حسن بغدادي **٩٩**

محطات مضيئة في حياة السيد محمد رضا فضل الله **٩٩**

ولادته ونسبه ١٠٠

نشأته ودراسته ١٠٢

كتاب السمكيّة ١٣١

قرار العودة إلى جبل عامل ١٣٥

الخاتمة: **١٤٩**